٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق
الارض الكلاسيكية عام ١٨٤٩م

ترجمة

د. ستار الجميل

كلية الآداب/ جامعة الموصل

مشروع العمل : رسائل جوستن بيركنس

إن جزءا كبيرا من الكتابات الميدانية حول «العراق» ، والتي كتبها ونشرها العديد من الرحالة الغربيين في فترات متباينة . . . لم تزل حتى يومنا هذا ، بعيدة عن الانظار العربية ، كونها محفوظة في لغاتها الاجنبية الام . . . وان ما ترجم منها ، او كتب عنها يعد قليلا جدا بالنسبة لما تضمه جامعات الغرب ومكتباته ، ومؤسساته . . من الكتابات القديمة المنشورة وغير المنشورة عن العراق ، سواء كانت تلك الكتابات على شكل مذكرات يومية او يوميات او رسائل او تآليف او مقالات . . . نشرت في فترات متباينة في حوليات مختلفة ، او على شكل كتب منفصلة . . . كلٌ في المجال الذي يعنيه ، والموضوع الذي يحتويه .

ولعل ما يلفت النظر ضمن ذلك التشكيل الواسع من الكتابات «الاجنبية» عن العراق : تلك الرحلة التي قام بها الراهب المبشر الدكتور جوستن بيركنس ـ Rev. D.D. Justin Perkins ـ ، والتي اخترق بها شمال العراق قادما اليه من شمال غرب ايران ، وذلك في سنة ١٨٤٩م[1] . وقد نشرت تفصيلات رحلته هذه على شكل رسائل في الحولية «مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» (Journal of the American Oriental Society) العدد الثاني ، الصادر في سنة ١٨٥١م[2] .

ونظرا لاهمية رحلة بيركنس ، وما تضمنته «رسائل صاحبها» من معلومات مفصلة من الناحية التاريخية والجغرافية والطبوغرافية والديموغرافية . . ولما لها من المتعة الادبية ، فقد عمدت الى وصفها بهذا المقال ، معتمدا في ذلك على «الرسائل» نفسها (= الاصول) ، ومعلقا على بعض ما رأيته يستوجب الملاحظة والاهتمام في ملحق بنهايته .

ومما تجدر ملاحظته حول هذه «الرسائل» الهامة ، انها بقيت مجهولة عند جميع المؤرخين والدارسين والباحثين من العرب والاجانب الذين كتبوا في جغرافية العراق وطبوغرافيته . . او اولئك الذين كتبوا في تاريخ عراق القرن التاسع عشر . . . لقد استفاد العديد من الكتاب العراقيين المحدثين من «قائمة المصادر الاجنبية» التي ضمنها المؤرخ الانكليزي ستيفن هيمسلي لونكريك لكتابه الشهير : «اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» . . ولكن هذا الاخير لم يستخدم «رسائل بيركنس» ولم

WWW.ATTAWEEL.COM

يشر اليها في «قائمة مصادره الاجنبية» المشار اليها اعلاه . علما بانه استعمل واشار الى ما هو اضعف منها «مادة» ، واضعف منها «معلومات»[1] !

لقد توضح لنا بعد دراستنا لـ«رسائل» جوستن بيركنس ، بان معلوماتها الجغرافية تطغى على «معلومات» الاحداث التاريخية . . لكنها بحد ذاتها ، إنما تضيء جوانباً نحن بأمسّ الحاجة الى معرفتها ، من احوال المجتمع والتراكيب السكانية عصر ذاك ، ناهيك عن تبيان طبيعة العلاقات السياسية المحلية التي حكمت اوضاع المنطقة . . ثم مدى فاعلية السياسة الادارية التي إتّبعتها باشوية بغداد ، في اطار القضاء على حالات التمرد والعصيان ضد «حكومة السلطان العثماني» . . ثم الوصف الدقيق والمعبر للموجودات الاثارية التي كانت قد اكتشفت ضمن اعمال التنقيبات . . . والتي شوهدت في المناطق الاشورية لكلٍّ من العواصم الغابرة : نينوى والنمرود وخرسباد وآشور . . والتي كانت قد غدت محط أنظار العالم قاطبة خلال النصف الاول من القرن الماضي . . وعدت تلك العمليات والاكتشافات الأثارية ، ظاهرة «متقدمة» لذلك العصر . واخيراً ، ماذا توضّح لنا ؟ يستشف قارىء «الرسائل» طبيعة الاسلوب والاداة والتفكير لـ«صاحب الرسائل» (جوستن بيركنس) كأحد الذين دفعتهم الاجهزة «الاستعمارية» الى المنطقة . . . ملاحظاته وتعليقاته التي توضح لمن يقرأ رسائله : امانيه وطموحاته وهو يجتاز اصعب المناطق في مسالكها الوعرة والخطيرة التي ينعدم فيها الامن والاستقرار . وهذا ما توضح جلياً من ثنايا هذه الرحلة .

ولكن ماذا عن النوايا والاغراض ؟

لقد كان قصد «جوستن بيركنس» قد بيّنه هو نفسه بجلاء . . إن الاغراض التي قصد صاحبها تحقيقها هي متنوعة ومتعددة ، مثلها مثل غيرها من الرحلات التي سبقتها او لحقتها من قبل الغربيين لمنطقة الشرق الاوسط عموما . . ويظهر جلياً بأنّ الهدف التبشيري كان من اساسيات تفكير الرحالة بيركنس ، باعتباره مبشرا امريكيا كان يعمل ضمن الهيئة الامريكية العاملة في ايران إبان تلك الحقبة . . وانه كان أحد مراسلي «المجلة الاستشراقية الامريكية» ـ المذكورة اعلاه ـ . وقد توضّح كلّ ذلك جلياً في بعض الفقرات التي كتبها في رسائله . اما الهدف الأخر ، والذي اولاه الكاتب اهميته وعنايتهُ في رحلته هذه . . انهُ ابتغى الوصول الى مدينة الموصل ، بغرض الاطلاع على الآثار الاشورية التي تتمالى قبالتها على الضفاف اليسرى من نهر دجلة ، والتي كانت قد اكتشفت حديثاً .

ولكن ما اهمية الاثار ؟

تعتبر الاكتشافات الأثارية الكبرى تلك . ظاهرة «غربية» لذلك العصر الباحث عن «حفائق الماضي اللاهوتي القديم» . . وقد برزت وتشكلّت وتجسدّت تلك الظاهرة في رحلات وتنقيبات الرجال الآثاريين الغربيين امثال : لايارد وراولينسون وبوتا ورسّام وغيرهم[2] ، وتمثلت امام العالم من خلال كتاباتهم سواء كانت نشريات ام مراسلات . . أم كتبٌ ورسوم . . الخ ومن المعلوم لدى الباحثين والعلماء ان نتائج تلك الاكتشافات كانت «ايجابية» كونها أمدت التاريخ والعلم والحياة والناس والجامعات . . بما كان ينقصهم من جوانب خفّية عن الحضارات الانسانية الاولى في دنيا وادي الرافدين ، وعن دُوله العالمية القديمة . أما النتائج المباشرة لتلك الاكتشافات الأثارية ، فانّ علينا نحن ابناء العراق ان ننظر اليها نظرة المالك لاثارة وموروثاته وموجوداته فقد كانت الاكتشافات ذات وجه سلبي ، اذ أن أعمالها الاساسية العامة ومن ضمنها عمليات التنقيب . . قد جرت في عصر ، كان اصحابها من ابناء «العراق» يوم ذاك غافلين عمّا يجري من حولهم ، نظراً لعقم ثقافتهم وضعف تحسسهم وقلة وعيهم بقيمة تلك المواريث والموجودات ، اذ انهم لم يقيموا وزناً يذكر لقيمة تلك الكنوز والنفائس التي نقلت الى اوربا على مرأى ومسمع منهم عملا بنظام «الامتيازات العثمانية» الذي منح للاوربيين في السياسة والدبلوماسية والتجارة والتنقل . . . ففقدوا والاجيال البعيدة من بعدهم اعظم ما خلفه التاريخ لهم من تراث حضاري يمثّل بنماذجه المختلفة المتوزعة في متاحف اوربا ، شموخ اقدم المدنيات البشرية في العراق . . هذا البلد الذي يعتبر : «الارض البكر الاولى من حياة التحضر

الانساني» وهي الارض التي اطلق عليها الرحالة بيركنس بـ «الارض الكلاسلكية» ، او «المهد البكر من عرق الانسان في الوجود» ـ على حد تعبيره ـ[1] . وماذا عن «الرسائل» ؟

تتصف «رسائل» جوستن بيركنس ، كونها تتحرّى خطّ الرحلة التي ضمّت كاتبها مع جماعته خطوة خطوة في المناطق التي جابها عبر شمال العراق . . داخلا اليه من البوابة الحدودية الاستراتيجية الجبلية (= كاليه شين)[2] ، بعد قطعه مسافات ايرانية ، ثم يخترق السلاسل الجبلية العراقية ، وسهل اربيل وسهل الموصل حتى يصل الى ضفاف نهر دجلة . وتتفاوت الرسائل في حجومها ، ما بين رسالة قصيرة تتألف من عدة اسطر الى اخرى مُسهبة في تفاصيلها . . تزيد على صفحتين وثلاث او اربع صفحات . اما تواريخها ، فتكاد تكون يومية «كتسجيلات» ، اذ تبتدىء الرسالة الاولى في ٢٥ ابريل (= نيسان) ١٨٤٩ ، وتؤرخ آخر رسالة في ١٨ مايس (= ايار) من نفس السنة ، ومجموع الرسائل كاملة ٢٤ رسالة ، اما العنوان الذي نشرت تحته في «مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» فهو :

'Artical IV: Journal of a tour from Oroomiah to Mosul through the Koordish Mountains, and a visit to the ruins of Nineveh', By Rev. Justun Perkins D.D., Missionary of the American Board in Persia, (Read May 24, 1850).(*)

وماذا عن الاسلوب الادبي الذي تميّز به بيركنس ؟

تمتاز رسائل جوستن بيركنس ، باسلوبها الرومانتيكي الأخاذ الذي يطغى عليه الجانب الوصفي . أما بناؤه . فهو مُحكم وذو تراكيب ادبية خصبة غاية في الجمال . يشعر القارىء ، وكأنه يعيش رحلة صاحبها لحظة بلحظة ، ويعيش المناطق الموصوفة ذاتها . . تلك التي اخترقها الكاتب ، بطبيعتها الخلابة : جبالها وسهولها ، عيونها وانهارها ، مزارعها وحقولها ، ليلها ونهارها . . وتجعله مشتدا لها ، متحمساً بِرَوعتها ، مجذبا بِسحرها ، تلك المناطق القصية من اعالي الجبال ، او السهول القريبة المتاخمة لها والممتدة حتى نهر دجلة . ولا غرابة ان يكون الاسلوب على درجة من هذه الصنعة ، فهو احد الوان الادب الرومانسي الذي كان مزدهرا في اوربا إبان القرن التاسع عشر .

من جانب آخر : هل هناك اشياء اخرى ؟

لا يفوت ان نذكر بان صاحب الرحلة قد تعرّض في رسائله بالمسّ من حياة وصفات بعض الجماعات والقبائل في الجبال . . حينما يكون مرتاعا من موقف يملأ قلبه دهشة ورهبةً وانفعالاً ، نتيجة للاضطرابات التي كانت تحيط المناطق التي اجتازها في تلك الظروف الصعبة من حياة «العراق» .

وماذا بعد ؟

قبل ان انقل القارىء للتعريف بصاحب الرحلة ، أوّد ان اطلعهُ على بعض الامور . فثمة إشارات في «اسلوب البحث والعمل» لابد من ذكرها :

١ ـ لقد اكدت على بعض الامور المذكورة في الرحلة من خلال «التشديدات» التي استخدمتها . . اذ لم تكن موجودة اصلا في النصوص ، واقصد «التشديدات» .

٢ ـ لقد تجاوزت عن ذكر امور وجدتها ليست بذي فائدة . . وخصوصا تلك الانشائيات اللفظية في الوصف والتي غالى فيها صاحبها .

٣ ـ اعتمدت على بعض المراجع المهمة في تخريج ومعرفة بعض المصطلحات والاماكن للتأكد من مَعرفتها . . ولم تسعفني تلك المراجع المعتمدة في التعرف على بعض القرى المغمورة التي ذكرها بيركنس في رساله ، وربما عرفها غيري بواسطة المشاهدة الميدانية بالعيان . . او من خلال اطلاعه على خرائط ثمينة وخاصة للمنطقة .

٤ ـ هناك بعض «الملاحظات» على هامش الرسائل . . اظن انها تعود الى هيئة تحرير «مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» كـ «تصويبات» منها على رسائل مندوبها بيركنس . . حافظت عليها ، وذكرتها في باب ملاحظاتي على الرحلة .

تعريف موجز بالرحالة جوستن بيركنس[3] :

ولد جوستن بيركنس في غرب المقاطعة الامريكية (Westfield)التي تسمى الان بمنطقة (Holyoke)، وذلك بتاريخ ٥

آذار=مارس ١٠٨٥م . وقد لازم حلقات (Andover) الدراسية اللاهوتية للفترة ١٨٣٠ ـ ١٨٣٢م . وتزوج من المس جارلوت باس في ٢١ تموز =يوليو ١٨٣٣م ، وانجبَ منها سبعة اطفال . سمي كاهنا في الكنيسة الابرشية الكهنوتية في سنة ١٨٣٣م ، ثمّ مبشراً ، وارسل كمبعوث اجنبي ضمن رحلات التجارة الامريكية الخارجية . وكان تخصصه في موضوع «المسيحيين النساطرة في شمال غرب ايران» والتي عمل هناك للفترة ١٨٣٣ ـ ١٨٦٩م . وقد اسس مركزا تبشيريا في مدينة اورمية بايران .. كما واسّس فيها اول مدرسة لانكاستريانية في آسيا الوسطى .

ويعتبر بيركنس اوّل من حوّل اللغة السطورية العامية الى السريانية الحديثة كتابة ، وأسس دار طباعة في سنة ١٨٤٠م ، واشتغل محرراً في مجلة «شعاعات الضوء»[٥] للفترة من ١٨٤٠ ـ ١٨٦٩م . ومن اعماله : ترجمته لـ«العهد الجديد» للغة السريانية سنة ١٨٤٦م . وايضا «العهد القديم» سنة ١٨٤٣م . والف كتابا بعنوان «اقامة ثمان سنوات في ايران»[٦] ، وكتاب «الحياة التبشيرية في ايران»[٧] ، وكتاب «مخطط تاريخي للبعثة التبشيرية نحو النساطرة»[٨] .

وتوفي جوستن بيركنس في ٣١ كانون الاول =ديسمبر سنة ١٨٦٩م[٩] .

الرحلة

البداية

تحرك بيركنس ، مغادرا محل اقامته في سير — Seir — ، وذلك في الساعة السابعة من صباح يوم ٢٦ نيسان ١٨٤٩ ، متوجها الى الموصل ، محطّ انظار عالم الغرب آنذاك ، والتي بدأ من اجلها رحلته ، مخترقا الزاوية المحورية للطرف الشمالي الغربي من ايران ، ليدخل عابرا بعدها السلاسل الجبلية الشاهقات الذرى ، والتي تمتد مواقعها ، وفجواتها ، ومنافذها الحية في المنطقة الشمالية من العراق ، وقد سلك بيركنس الطريق الستراتيجي ـ التاريخي الذي مر من خلال ثغوره العديد من عظماء التاريخ ، مجتازا القرى والمدن المحلية التي تمتد عبر طول هذا الخط الجغرافي=والذي يصل مدينة اورمية بهذه السلسلة .

ولم يتوضح لنا كم كان عدد جماعته التي كانت ترافقه في رحلته هذه ، ولكنه يعلمنا انه اصطحب بعض الادلاء من السكان المحليين ، ليكونوا عونا له في الطريق الذي سيسلكه ، وليفيد كذلك من خبرتهم عبر المسالك[١٠] .

في اراضي كردستان ايران

واصل بيركنس رحلته ، حين عبر جسرا مقاما على نهر باراندوز — Barandooz — ، ذلك الجسر الذي يكاد يلامس صفحة الماء الصافي .. ثم انحدر مع جماعته نحو البحيرة الكائنة غربي تلك الجبال ، التي تشترك في سلاسلها بين العراق وتركيا وايران ، وتنحصر هنا على محور عريض في فجوة جغرافية مستطيلة من اراضي ايران . توقف بيركنس ليلا قرب قرية كرجان — Garjan — وتلقى دعوة من قبل صاحبها كريم خان ، فلباها بشغف عميق وها هو جالسا مستجما في الغرفة العليا من بيت هذا الخان ، وليرى كم كان منظر البحيرة خلابا .. ولم يعكر صفو استجمامه ذاك الا صوت اطلاقات نارية دوت في الافق[١١] .

ويمضي في طريقه القريب من البحيرة ، قاطعا تلك الحقول الخضراء ، ثم يجتاز سلسلة من تلال صخرية منخفضة ، ويعبر مقاطعة سولدوز — Soldoz —[١٢] ، ومدينتها الرئيسية نيقاديك — Niqadik — ، ثم يذكرنا بالخطر المحدق في ذهابهم من خلال هذا الطريق ، ولا سيما من الجماعات التي تسيطر على القمم ، وتتوزع بين الكهوف الغائرة ، وهم من الاكراد الذين كانوا قد قتلوا العديد من الايرانيين في تلك المناطق .

هكذا يعدد مصاعبه اثناء تقدمه في سولدوز ، ويصف لنا كم كانت الدهشة كبيرة تلك التي ارتسمت على وجوه الناس الذين صادفوه في هذا الطريق ، وعلى درجة مخيفة من الغرابة .

كانت الثلوج بيضاء وفيرة وهي تعلو سلاسل ومنحنيات الجبال التي كانت تحتضن طريق القافلة ، وقد وصلوا نهر جيدير — Jidir — بعد انهمار المطر . وكان النهر يبسط صفحته المائية عرضا كلما ازدادت القافلة تقدماً ، وعند حافته الجنوبية اخذت الرحلة طريقا مباشرا طوله ميلان ، اوصلهم الى قرية راخنانا — Rakhnana — ، التي تضم ست عوائل نسطورية ، وهم

الناس الذين توقف بينهم بيركنس وقد اعتبرهم من ملّة ـ على حد تعبيره ـ .

بعد ان يصف بيركنس مقاطعة سولدوز ، وما يتخلل طبيعتها ، وما يزخر مزارعها[١٣] .. يواصل مسيرته بقطعه ٥ فراسخ ليصل بعد ذلك الى مدينة ساوج بلاق — Saoj — Bulak[١٤] حيث اصبح الان مع ركبه بين الجبال الكردية ، وصعدوا اعلى قمة في تلك السلسة الجبلية ، وقد تركوا المدينة قائمة مباشرة تحت هامة ذلك الجبل المطل من فوقها ، ثم انحدروا وعبروا نهرها بواسطة جسر حجري عال ، مبنيا باربع قناطر وقد تلفت بعض احجارها ، وكان طوله حوالي ١٥٠ قدما .. وعلى جنوب النهر تنتشر مزارع القمح والكهوف الحجرية . ويستطرد بيركنس قائلا : من المحتمل ان اسم هذه المدينة قد اشتق من طبيعتها ، والذي يعني (الربيع البارد) .

تبدّت قمم جبلية مخضوضرة ، هذا ما يكسو البعض منها ثلجا ، متشرا هنا وهناك ، وكان الفصل سائغا ، ومناخه صافيا لمن يؤثر السفر فيه ، الا ما يزعج من انهمار المطر احيانا .. ورغم ما يحيط بالمدينة من جبال الا انها ستكون ذات حرارة لاهفة صيفا . ويسكنها الاكراد ، وفيها حوالي مائة بيت من اليهود . البيوت حمراء داكنة ، واسطحها صغيرة ، كما ان فيها اربع عوائل ارمنية ، وهي ذات تعامل تجاري جيد مع اماكن مهمة تستقطب المجاهاتها ، فقد شاهد بيركنس في السوق تجارا من تبريز والموصل واورمية ، كما يمر عبرها الترانسبورت الى اسطنبول واوربا عن طريق ارضروم ، والى اذربيجان وروسيا عن طريق بحر قزوين[١٥] .

في مساء ٢٩ ابريل ، انزلت الرحال بعد ان توقف الركب عند قرية دارلك — Darlk — التي يسكنها خمسة عشر عائلة ارمنية ، وعشر عوائل نسطورية . وانهمرت الامطار ليلا ولكن تغير الطقس ، اذ هبّ الهواء عليلا ، ونشرت شمس النهار اشعتها على اطراف تلك البقاع .. وبينما كانت القافلة تمضي في طريقها ، كان بيركنس يسجل المعلومات الاساسية الهامة عن الموصل والمسالك الجبلية المؤدية لها ، وعبر مناطق الثلوج العميقة التي قدر صعوبة اجتيازها في ذلك الفصل من السنة . . . فكيف اذا ما كان الفصل في بواكيره ؟ ان الثلوج الطامية في المسالك هي عقبة كأداء تعيق الحركة والتنقل بين اقصر الطرق[١٦] . اما المسلك الذي سيتبعه بيركنس نحو العراق ، فهو من خلال القمة العليا التي تدعى بـ (كاليه شين) — Galeh Shin —[١٧] اي الدعامة اللازوردية الزرقاء ، والواقعة على المسلك بين اوشنو ورافاندوز — Ravanduz — . وهي دعامة رخامية شامخة علوها ثمانية او عشرة اقدام ، ويصفها بيركنس وصفا دقيقا ، ويذكر بان الميجر راولنسون — Rawlinson —[١٨] قد زارها منذ عدة سنين ، وكان قد نسخ منها نقوش الحروف المسمارية . ويعتبر هذا المسلك ذا موقع استراتيجي ، وله تاريخه العريق فقد مر من خلال ثغوره الاسكندر المكدوني في حركاته الحربية مع داريوس الملك الفارسي[١٩] .

يواصل بيركنس رحلته في ٢ مايس ، على المسلك الذي يقوم بين طرابزون ـ ارضروم فيسهب في وصف هذا الطريق ، ويصّور لنا مروجه ، والطيور التي تتلاعب في سمائه ، وبساتينه المزدهرة بثمار الكمثرى والمشم . ونهره ، والاشجار الوارفة المتناثرة على حافة ذلك النهر ، وكأنها حاشية شريطية خضراء ملتحمة مع زرقة الماء الشفافة . وبعد خمسة اميال ، يصل الى قرية صغيرة تدعى بايرام شاه — Bayram Shah — التي يتركها منحرفا نحو الغرب ، ويرى ينابيع الماء تنضح في الوديان رقراقة صافية او ترسمها الطبيعة على صفحة الجبال ، خطوطا متوزعة متعرجة بعد ذوبان الثلوج . . وعند احد تلك الوديان الكبيرة ، افترش بيركنس الارض مع جماعته ، وكانت متعته كبيرة بمشاهد الواح الطبيعة ، وهو يتنسم عبقات الزهور الطرية ، وروائح اشجار الجوز والتفاح . . وكانت نغمات الطبيعة تتبدد في خفوت وتبقى سقسقات العصافير المنبعثة عن قرب تموسق سكون ذلك الوادي الجميل . اما الشمس فتسقط حليفها كلّ يوم على تلك الجبال المتلبّسة بالبياض . ويتحدث بيركنس عن الشمس الساطعة والثلج والجليد . . . وقدرته ـ هو نفسه ـ على تذوق الحليب الرائب . . اللبن والقيمر — Kimak — الذي اهدى اليه

من الجيران الذين كان يخيّم لبعض الوقت بالقرب منهم[٢٠] .

مضت الرحلة في طريقها ، وهبّت الريح فاخذت الاشجار تتراقص ، ثم انهالت الامطار ثقيلة مترعة ، واستمرت نحو ساعة من الوقت . . قطعت فيها الجماعة حوالي ميلين . . ولازالوا في الطرف الغربي المباشر وتتراءى لهم على الحدود الجنوبية نقطة جبلية عظيمة تشكّل الحدود العامة بين العراق وايران[٢١] ، وقد غطيّت بالثلوج البيضاء الوفيرة . . وبدت نهاياتها لا يحدّها شيء سوف الافق .

انحرفت الرحلة الان لاربعة او خمسة اميال نحو الجنوب الغربي ، ووصلت سهل لوجان — Lojan — وهو ذو تربة غنية ، ومياه وفيرة . . ويجري في شماله الشرقي نهر صغير يدعى (روبرى - Rubari —) ، وهناك نهر آخر بالعوض يسمّى (ليفان — Livan —) والذي يدخل السهل من جنوبه الغربي . نهران تجري على جانبيها جداول صغيرة تروى جميع القرى التي تتوزع في تلك المنطقة ، وتصل الجنوب حتى المنطقة الايرانية من سرادشت — Serdasht —[٢٢] . كانت الاشجار الصنوبرية كثيفة تظلل عددا من الكهوف ، والصخور الممتدة من سولدوز منتشرة على طريق السلسلة المنخفضة للجبال . وتقطن هذه المنطقة قبيلة البلباس[٢٣] . وعلى ما يقرب من تسع ساعات ، قطعت الرحلة ما يقرب من ثلاثين ميلا بين احراش الاستبس. ثم خيّم الركب ليلا في الجنوب الغربي من السهل عند قرية هانيه — Hanee — التي تعتبر محل اقامة قره ياغا ، ذلك الرئيس البارز لقبيلة البلباس صاحبة النفوذ ، وهو الذي قاد القبائل الكردية الرحّل التي غزت ارومية في الخريف المنصرم ، ونهبت خمس عشرة قرية جنوب السهل ، فكانت له سمعته في الاماكن التي اجتازتها الرحلة . . على ايّة حال ، فقد صرف بيركنس نظره عن رؤية هذا الرجل الذي كان غائبا عن قريته في ذهابه الى اوشنو . فكان ان استضافهم ولده الاكبر مراد اغا ورحّب بهم بحرارة . كان يناهز الثلاثين من العمر ، وقد جالسهم واكرمهم بعشاء سخي ، وقضوا ساعات المساء عنده . ويذكر بيركنس بانه قد عومل من قبل هذا الرجل بمنتهى الاحترام والرقة . وبسط له القول كونه لم يشاهد ابدا من الاوربيين اناسا قد عبروا سهل ليجان قبل هذا التاريخ .

يعبر بيركنس بعد ذلك عن هواجسه وقد ملأ الخوف قلبه حين يشرح لنا كيف تسرب بعد ذلك مع جماعته بصورة خاطفة حوالي عشرة اميال من المكان الذي توقف فيه عند مقابلته لرئيس البلباس ، الذي نصح لهم باتخاذ الحيطة والحذر ومراقبة انفسهم من الناس الذين «لايخافون الله» لئلّهمْ في الخارج صمت قاتل ، وكان يوما غائما حين تسابق فيه المساء عليهم ، وانه لمكان ملائم ، ووقت مناسب جدا للرجال الدمويين ، وللاعمال اللعينة المخزية - على حد ذكر صاحب الرحلة - . ويستأنف قائلا «اننا نؤمل ان ندخل (العراق) غدا ، وهو المكان الذي يعتبر اكثر امنا ، نظرا لتواجد حكومة فعالة على اراضيه ، وعليه فخطر القبائل قليل . ولقد صرح لنا مضيفنا الشاب - رئيس البلباس - عن الرغبة القوية المتواجدة لدى الجميع ، والتي تريد العيش تحت ظل حكم الاتراك بدلا من الحكم الايراني»[٢٤] . ولقد بقي مراد اغا برفقة بيركنس حتى صباح الرابع من نيسان ، وقد اكرمهم فيه كعادته بمائدة افطار شهية تضمنت الخبز واللبن والدوشاب المغلي اي (دبس السكر) . وتقدم معهم حوالي اربعين ميلا من رحلتهم المتواصلة . . بالوقت الذي وصلت الاخبار عنها الى القنصل الانكليزي في الموصل[٢٥] عن طريق استخباراته .

الدخول الى (العراق)

وفي اثناء مسيره ، عرف بيركنس المزيد من المعلومات عن كيفية عبور الحدود العراقية - الايرانية ، وما يتخللها من مناطق جبلية ، وقرى جبلية ، كما والم بطبيعة (كاليه شين) ، والمرور عبر هذا المفصل التاريخي - الجغرافي بين البلدين ، والذي يعتبر اشبه بنافذة جبلية حادة ، التي دخلوا العراق منها ، ووصلوا (شيخ محمد) — Shaikh Muhammad — ذلك المكان الرائع الذي يتصل بالمسلك الجبلي ، وهو احد الاضرحة الكبيرة الذي تؤمه الزوار

داخل بناء صغير تحتويه ظلال اشجار الصنوبر ، وهو مقدس من قبل الاكراد ، وحوله قبور وزهور جميلة . ثم وصلوا قرية (بالك) — Balak — التي تقع ضمن اقليم راواندوز الذي يرتبط اداريا بباشوية بغداد — Baghdad Pashalig ، وقد قطعت الرحلة هذا اليوم ما يقرب من ثلاثين ميلا ، ولا زالت في طريقها الذي بدأ ينحرف قليلا نحو الجنوب الغربي .

بعد الدخول الى الاراضي الكردية من العراق ، ياخذ الطريق بالالتواء نزولا ، وهو ضيق وشاهق ، وعلى جانبه واد صخري سحيق . . . الثلوج تذوب على الجبال من حوله لتؤلف جدولا كبيرا يتهادى ماؤه ليصل الى واد مشابه له يقع على الطرف الاخر من الطريق ليكون بعد ذلك نهر راوندوز . النهر الذي يعتبر من اهم روافد الزاب (زاباتوس — Zabatus — عند اكزانافون) — Xenophon) ، وتراءت لبيركنس بعض الحقول الصغيرة القمحية ، وكانت يانعة الاخضرار ، وعلى البعد منها تتفرق شجيرات البلوط ، واشجار السنديان والغرب بشكل مجاميع على سفحات الجبل .

انحدرت الجماعة الى اسفل قاع الوادي . واصبحت الجبال في الطرف الاخر نافذة حادة وتغشاها قطع الغيوم المتفرقة في عليائها ، وقطعوا مسافة اوصلتهم الى قرية رايات — Rayat — وقد ظن اصحابها ان للقافلة سلمها وبضائعها ، ولم يصدقوا ما اعلن من امر هذه الرحلة ، اذ توقعوا العكس تماما ، فبادروا الجياد ليقفوا ويفحصوا صناديق المؤن المحمولة ، وتراشقوا الكلمات الحادة مع الادلاء ، وكاد يعصف الامر بينهم لولا التهديد الذي مورس معهم . . وقد اثار موقف احد الادلاء المرافقين الارتياح عند بيركنس ، كونه نجح في تهذيبه العنيف مع بني قومه بجلجلته اللغوية التي لم يفهمها بيركنس ـ على حد تعبيره ـ .

قرية رايات ، قلعة قوية ، مبنية بالحجر والكلس ، وتتشابه مع غيرها من القرى في هذا الوادي الذي تعتبر منطقته هذه ذات تحصينات قائمة ، ومتواجدة بما يقرب من عشرين عاما ، وذلك من قبل محمد باشا او كورمير[٢٦] ، الرئيس الاعلى لراوندوز ، والذي تمرد ضد حكومة السلطان العثماني ونشر الخراب في كل مكان من مقاطعته ، كما نشر الرعب في جميع الاقسام المتاخمة لها[٢٧] .

نزلت القافلة في طريقها حتى صارت الى قرية (ديربنت) — Derbent — ، القرية اللطيفة ، التي هي رغم صغرها مأوى ينعم بالدفء ، ومنحجب تماما عن الانظار . وتقع على مفرق طويل ما بين نهر راوندوز ورافد اكبر يدخل من الشمال ، ويتحدر هذا النهر كثيرا عما يجعل مياهه تندفع بقوة عظيمة جدا . ويقف بيركنس معلقا على هذا بقوله : وانه لو كان ذلك متواجدا في بلد متمدن ، لتحولت قوة النهر هذه عبر آلاف الدواليب للاغراض الصناعية ، والاستفادة من طاقتها في المعامل ، ساحبة الصوف من اصل عشرات الآلاف من قطعان الخراف المتواجدة في كل مكان من هذه المقاطعة لتنتج بعد ذلك سلعة مصنوعة ، وهذا ما يقال نفسه عن عدة انهر اخرى شبيهة تتدفق ما بين الجبال» .

ان موقع ديربنت شاهق جدا ، والبيوت مبنية بالحجارة وقريبة فيما بينها . الاشجار خضراء جميلة نحو الاعلى من حافة النهر ، وتوزع حقول القمح نحو الادنى من القرية ، اما الجبال الصخرية الجانبية فقد غطيت في هذا الوقت من السنة بطبقة ثخينة من الطحالب التي نادرا ما وكنا نراها» في ايران ، ومن المحتمل ان نموها يتأتى عن حالة الجفاف التي يتمتع بها الغلاف الجوي في هذه المنطقة ـ على حد قول بيركنس ـ .

انحدرت القافلة بعض الاميال تحت بيرميت ، وكان طريقها صخريا ووعرا ، حتى وصولها الى واد ضيق ، ذلك الذي تقوم عنده قرية (ميميحال) — Memehall — ، وقد تحدث الى بيركنس البعض من المسافرين الاكراد الذين مروا به عن الجيش التركي الجرار الذي كان محتشدا عند راوندوز ، وفعلا عند وصولهم هذه المدينة ، علموا ان الف جندي قد جاؤا من المركز بغداد الى المنطقة المجاورة لـ(خوى) — Khoy —[٢٨] لتقوم بعمليات تأديبية للخارجين عن القانون ، والذين جاءوا الى ايران اثر تقدم الجيش التركي الذي كان يحتوي الآلاف من الجنود

النظامين ، وقد اهتاج منهم اولئك القرويون الاكراد ، والاكراد هم الذين اعلموا بيركنس بتأجج الموقف[٢٩]

كانت القافلة قد نصبت خيامها في الليلة الماضية على بعد نصف ميل من قرية (ميمحال) هناك حيث براري كردستان الموحشة ، ولكن اصحابنا كانوا مطمئنين في نومهم ، دون مراقبة للموقف او خشية من احد ، فيتبدد في رقادهم كل ما علق بهم من وعثاء السفر واتعابه ، ويعود الامر في هذا كله لتواجد الحكومة الفعالة عكس ما عليه الحال في ايران ، وخلال خمسة عشر عاما لم يستطع احد من الاوربيين الاحتكاك بهذا الاقليم ، اما الان فقد اثمرت الجهود المكثفة لكل من الاتراك والايرانيين في قهر تلك الرهبة التي كان قد زرعها كورمير ، وعاد الامن والاستقرار الى ربوع هذه الجبال .

واصلت الرحلة طريقها غربا لما يقرب من ثلاثين ميلا ، متبعة في نزولها نهر راوندوز ، وذلك من خلال طريق صخري ضيق يبلغ طول قاعدته ١٠٠ قدم ، وله ارتفاع شاهق على جانبه الاخر يعلوه بمئات الاقدام ، اما الجبال ـ هنا ـ فقد لبست سفوحها اشجار البلوط ، وكسيت الارض بالمروج الملونة الجميلة التي تتماوج على حافة النهر ، اما اشجار الصنوبر الطبيعية الكثيفة فانها تنتشر على مد البصر ، التي نادرا ما تتواجد في الجبال الايرانية ، تلك الجبال التي وصفها بيركنس بالجبال الصحراوية .

تابعوا سيرهم بعد ان انحدروا غربا بموازاة هذا النهر المتدفق بحوالي اربعة اميال ، ثم عبروا جدول ماء بواسطة جسر خشبي ، وانحرفوا الى الجنوب الغربي من الضفة ، ومروا بثلاث قرى تدعى على التوالي (جومان) — Choman — ، و (ريزان) — Rizan — ثم (عمرافا) — Omarava — وتحيط هذه القرى اشجار الفواكه ومزارع القمح . . وعند القرية الاخيرة عبروا الى الجانب الاخر من النهر ، ثم اخذوا بالصعود الى قمة الجبل العالية المكسوة بغابة كثيفة من البلوط ، حتى وصلوا قرية (جامركين) — Chamarkin — الشبيهة بتلك التي مروا بها سابقا ، ومنها وصلوا قرية (ديركالا) — — Dergala ، وهي قلعة قوية وكبيرة ، ويقطنها اليهود ، وقد هرع العديد من الاطفال راكضين الى الطريق ليروا موكبنا ، وخاطبوا بيركنس بالسريانية ـ كما يذكر ـ التي تعتبر لغتهم البلدية . . وبدأت السماء تمطر مطرا ثقيلا على طول الطريق ، فسبب للرحلة مصاعب جمة ، ثم يقدم بيركنس بعد صعوده مئات بل الاف الاقدام منذ دخوله منطقة الرعب التركي ـ كما يسميها ـ يقدم وصفا لغلال اشجار العفص ، وكيفية جمعه من قبل سكان تلك الجبال ، رجالا ونساء واطفالا وذلك خلال الموسم المحدد من كل سنة[٣٠] .

تلألأ بريق الشمس اللامع ، وانتشر على تلك البقاع صباح يوم ٦ مايس ، وانحدر الركب من القرية نحو مركز الوادي ، وكان المنظر رائعا لما يعلوه ويدنوه ، والتقوا مرة اخرى مع نهر راوندوز وقد قطعوا خلال ذلك خمسة او ستة اميال ، واقتربوا من مدينة راوندوز[٣١] ، بعد مصادفتهم لبعض المتاعب في الطريق ، اذ انكسرت (العجلة) من جراء الامطار .

راوندوز[٣٢]

هذه المدينة التي توضحت حالتها من ثنيات ذلك الوادي المنخفض ، وقد ذكر لصاحب الرحلة انها حارة وغير مريحة ولكنها بلدة صحية ، ويبلغ عدد سكانها ١٥٠٠ عائلة ، وهناك من بين هذا الاجمالي ٨٠ عائلة يهودية ، والبقية اكراد ، اضافة الى وجود يهود اخرين ايضا في عدد من القرى المجاورة ،وهناك قرية صغيرة تدعى (پايال) — — Papal ويسكنها النساطرة . ويتكلم اليهود اللغة السريانية . وعبثا حاول بيركنس ان يحرز عينة من منطقهم ، اذ يقول ان نزعتهم الى الشك القديم الذي مرده حاخامهم ، لن تجعلهم يتقبلوا حتى الكتابة لمن يملي عليهم فصلا من فصول العهد الجديد (= الانجيل) .

لقد تمركز في راوندوز اربعمائة جندي تركي ، ليساعدوا في حكم هذه المدينة واقليمها . بيوتها مبنية على درجات ، اضافة الى الاسطح المسطحة التي يعلو الواحد منها الاخر . هذا ، اذن ، شكل راوندوز ، الاسم الذي كان يقلق تلك الاقاليم الايرانية التي مرت بها الرحلة لاول مرة . . وهي بالذات مكان

محمد باشا او كورمير ، كما كان يدعى عشائريا[33] ، والذي كان لديه ٢٠ الفا من الاتباع البدائيين ـ على حد قول بيركنس ـ ، وقد قهر كورمير في نهاية الامر سنة ١٨٣٦ ، من قبل الجهود المكثفة لكل من الجيشين التركي والايراني . ويتابع قوله فيصف كورمير انّه في الحقيقة رجل دم ، ويروى عنه مثلا انه في احدى المناسبات عندما كان هاجما يغط في نومه على سطح قلعته المتغطرسة العالية صيفا ، في ساعات الليل الحالك ازعجه بكاء طفله اليافعة التي كانت محزومة في المهد بجانبه ، فاستيقظ ونهض حانقاً واخذ الطفلة بيده وقذفها الى النهر الهادر في اعماق القاع السحيق ، وذاع توحشه بين بني قومه الذين ظلوا يذكرون هذه المأساة المريرة .

لقد نجح رسول باشا اخو كورمير مؤخرا في حكومة راوندوز ، الا ان الترك وجدوا ان ثقتهم به في غير موضعها ، في حين انه على مدى ثلاث سنين مضت ، كان مجبرا لان يتفادى العصيان ، وذلك قبل زحف الجيش التركي الى ايران ، وبواسطة التدخل الانكليزي رخص بتواجده راجعا كشخص اعتيادي ليسكن في بغداد .

ان الحاكم الحالي لراوندوز هو التركي المخلص ، حاجي محمد اغا الذي اخضع هذا الاقليم المتطرف بفعالية بالغة ، وتحول الاكراد في سنوات قليلة الى قرويين هادئين ـ على حد قول بيركنس ـ ويذكر انه من الاستحالة ان يدخل احد من الاوربيين هذه الجبال ، بدون خطر محدق واكيد . . ثم يورد اخبارا عن كورمير ، وحركاته الدموية للقرى المنتشرة حول راوندوز واخضاعه للتيارية ـ —Tiyari[34] ، كما بدد القرى النصرانية حيث وجدت بدون رحمة او تحيز لذرائعه ، وحطم القرية البابوية الكبيرة القوش ـ —Alqush[35]

في راوندوز ، وعلى جانب من مخيمه ، تهادى صوت الموسيقى المارشالية ـ الحربية مساءا كان ينبعث رخيما من ثكنات الجنود ، قد استساغ هذا الصوت ـ كما يذكر ـ ونقلته تلك المقطوعات الموسيقية التي يعهدها الى وطنه واهله . . . ويتابع كلامه بالقول : «وهنا نتذكر ايضا طبيعة التكتيك الاوربي ، وماجرى من العمليات على مدى الثلاثين سنة الاخيرة في سبيل ان يرقى الامن والتقدم الحضاري في تركيا[36] ، ولقد جعلتنا هذه الاطراف الاكثر تطرفا نحس انها ليست في مركز قلب الامبراطورية ، مع انكارنا من طرف آخر لايمان الجيش وفاعليته وتنظيمه بالنسبة الى كل ذلك» .

في زيارته للمدينة ، نستمع معا الى وصفه لها كما يراها . فبيوتها مبنية بصورة مجزأة من قطع الصخر والآجر . الذي يصنع من الطين الممزوج مع كمية كبيرة من التبن على الاسلوب المصري القديم[37] . . الشوارع ضيقة ، متعرجة ملتوية ، وقذرة . . وفي الاسواق البعض من تجار الموصل الصغار ، وقد بان الان ان عددهم هنا قد كثر بصورة واضحة .

ودعي بيركنس عند حاكم الاقليم الذي وصفه بذلك الرجل البغدادي الذكي الذي يتمتع برقة عالية ، الذي انسجم معه ، واهتم به ، ووجه رسالة بصدده لتكون عونا له ولجماعته في تسهيل ما قد يعترضهم في الطريق ، يقول بيركنس : «وقد هنأناه على خططه ، وتقدمه في اقليم كردستان ، وقد عبر لنا عن امله لان يبقى التغيرات الاعظم ، ويطورها نحو الاحسن دوما» . ويذكر بيركنس ، انه صادف احد التجار الاكراد في راوندوز ، واسمه محمد امين اغا ، وصفه بالرجل المحب والذكي . . والذي كان قد زار استانبول وتبريز ومدن اخرى ، ولم يستطع بيركنس ان يقنع نفسه ، كيف ان رجلا متحضراً كهذا يعيش في جبال موحشة كهذه . ويستطرد قائلا : بان هذا الرجل كان ثائرا في اطرائه للتغيير من الكردية الى الحكم التركي مع انه كردي المنبت . . وهو نفسه الذي كان قد صاحب كورمير في محاولات اعتدائه غير الناجحة على مناطق عديدة[38] .

وتبدأ الرحلة من جديد :

في ٨ مايس ، تبدأ الرحلة من جديد في طرق ملتوية صعبة . . كان تقدمها ضئيلا الى الجنوب الغربي من راوندوز ، وقد عبروا جسرا يقوم على نهر المدينة ، التي حمل بيركنس بيده توصية من حاكمها القدير للقرى التي سوف يمر بها ، اضافة الى ذلك فقد انتدب هذا الحاكم للقافلة بعض الحراس ليكونوا عينا

ساهرة لها حتى اخر الليل . ويرجع لنا بيركنس ، ليصف المكان الذي يمر به ، وذلك النهر وحافاته الصخرية ، وبحراه واتجاهه نحو اليمين من ممر ضيق ، تتعلق فوقه قلعة الحكام الجاثمة على ضفته الصخرية التي يقدر علوها بمائة وخمسين قدما . لقد صاحب بيركنس خارج المدينة تجار الموصل ويذكر مستطردا : «بان هؤلاء التجار اضافة الى مصاحبتهم لنا ، فانهم اطلعونا على بعض الامور ، وارشدونا ، واهتموا بنا ، ورافق ذلك مزيد من الكياسة واللطف الشرقي الاصيل» .

ان حكومة هذا الاقليم التي تديرها باشوية بغداد ، تمتاز بقدرتها ، وضبطها ، وفاعليتها على جميع الاطراف ـ على حد تعبيره ـ ، وكيف استطاعت في وقت قصير ان تغمر السعادة بين جميع الطبقات والملل التي تتعايش جنبا الى جنب ، موظفة اليهود والاكراد في الدوائر المسؤولة ، وخصوصا في دوائر الكمارك ، وكم يتراءى الاطفال لدى هذا المجتمع سعداء اكثر بكثير من اطفال ايران ، تراهم لاعبين ، فرحين حتى ساعة متأخرة من ساعات المساء .

بعد ان غابت اسوار راوندوز وبساتينها المزهرة الجميلة عن عيون القافلة ، اخذهم ذلك الطريق الجبلي العميق الى منطقة (زك زاك) — zag — zig — ، التي تمتاز بمنحوراتها الانكسارية البارزة . اما الطريق هنا فانه صعب في الاجتياز . . اما الذي يلفت النظر حقا فانها تلك الاعداد العظيمة من الاشجار والشجيرات التي تتوزع في كل حدب وصوب . . ثم جماعات من الاكراد ، كانوا يتحركون مع عوائلهم ، ومواشيهم من المناطق الدافئة الادنى ، تلك الامكنة التي قضوا فيها فصل الشتاء ، قدموا لينشروا انفسهم ـ الان ـ فوق الجبال المتاخمة . وكانت هذه الجماعات الكردية من المركية ـ — Harkia ، والذين عادة ما يتحولون شتاءا نحو اراضي باشوية الموصل Mosul — — Pashalik ثم ينتقلوا صيفا الى الجبال فوق تركور — Tergawar[٣٨] . ان المخاطر كبيرة في العبور من قمة الجبل ، داخل ثغرة ضيقة ، تعبر منها العوائل الكردية ، مع مواشيهم واحمالهم ، وذلك بطريقة بارعة ، اذ يتخللون هذا الممر الواحد باتجاهات متنوعة في آن واحد . ولكن . . كم هو الخطر المحدق من العلو الشاهق نحو الوادي السحيق ؟؟

يصل بيركنس هاوية خليفان ـ — khalifan التي يتسرب حجمها المنجرف العظيم من الطرف الجنوبي الغربي ، متخللا الاعماق المتثنية مع ضفاف شبيهة بتلك التي رآها هذا الرحالة عند نهر راوندوز . . الطريق الان ينعطف حول جرف مفتوح نحو الجنوب ، ياخذ القافلة ليوصلها الى الحافة المقابلة . فتصبح جوانب الجبل على اليد الاخرى ، اما اتجاهها فقد بدا الان معاكسا تماما . . وكانت اللواحق الاخرى من الاقسام الدنيا لهذه الهاوية ملبسة باشجار الجوز الثقيلة ، وشجيرات خضراء صغيرة زاهية اما حوافي ذلك المجرى فقد كانت غنية بالحشائش والاعشاب ، وبقربها تنسج الطحالب اليافها التي تطفو في المياه الصافية . ويتجمع الاكراد باعداد غفيرة قرب شواطىء هذا النهر ، لكي يرعوا قطعانهم من الماشية ، وقد جلسوا هم ليتنعموا بالظل البارد .

لقد عبرت القافلة الى الضفة الغربية من هذا الرافد بواسطة جسر مبني بدعامات حجرية ، وواصلت مسيرتها الهادئة لاكثر من ميلين ، بعد تركها قرية «خليفان» التي تبعد نصف ميل اعلى النهر ، وهي القرية الوحيدة التي رأتها الرحلة في هذا اليوم ، وقد اكتمل عبر السلسلة الجبلية العظيمة . ويحكي بيركنس لنا نتفا من صور الحياة الاجتماعية التي رآها[٣٩] ، فالعائلة الكردية متماسكة فيما بينها ، ومترابطة في تكوينها ، يتصف الرجل بصلابته ، والمرأة بقوتها . . وكيف انها تحمل مهد طفلها على ظهرها ، وهي تراقب بقية اطفالها الذين حواليها ، وهم يسيرون معها ؟؟ ثم ما اكثر الرعاة والفقراء في هذه المناطق . .

خيم بيركنس ليلا الى الجنوب الغربي من جبل عال ، وقد تسلقه ثلاثة جنود من راوندوز ، ودخلوا علينا ـ كما يذكر ـ ليقصوا لنا الروايات الهامة عن فرار كورمير ، وهروبه من الطريق القريب منا ، وملاحقة الجيش التركي له ، بالتعبئة العسكرية المنظمة . . كان الجنود يتنزعون ـ على سبيل المثال ـ مدفعهم بواسطة الحبال ، ثم يحفروا قليلا في الثلوج المتوجة العالية ،

ويغمروه فيها ، حتى اذا ما تحركوا في تقدمهم ثانيا ، نقلوا ذلك من اماكن تواجدها الى طريق اخر . وقد مرّ الجيش عبر المسلك الذي اجتازته القافلة ، حسب رواية اولئك الجنود .

رحل الجيش التركي هذا اليوم في قوة كبيرة من خوى ـ Khoy ـ ، بغرض مطاردة رئيس الثائركورد ، الذي ساد سابقا على تسعين قرية ، كان خائفا ، فلاذ بالفرار طائرا كالحجل بين تلك الاقاليم ، ولا يزال مرتكبا السرقات خلال المطاردة المحكمة[٣] .

هذا هو اليوم التاسع من مايس ، تقدمت فيه الرحلة نحو الجنوب الغربي لاكثر من عشرين ميلا ، وعبرت سلسلة جبال انكسارية ، وامتداداتها تقدر بستة او ثمانية اميال ، وتدعى بعض اماكنها بالجبال المنخفضة ، ولكن تعتبر هذه التسمية مغايرة في صورتها لتلك الطبيعة الصعبة القاسية فقد كان الطريق صخرياً ووعراً من خلال ارتفاعات حادة الاطراف . . . ان هذه السلسلة مغطاة بشجيرات البلوط الشبيهة بتلك التي كانت متكاثرة على الجبال العالية ، اضافة الى هذا ، تنتشر هنا حقول قمح صغيرة ، وشجيرات الكروم الجميلة المبعثرة هنا وهناك .

بعد قطعه لهذه المسافة ، لاح لمرأى بيركنس سهلٌ عظيمٌ متماوج على امتداد ثلاثين ميلا كاملة او اكثر . ويتقاطع من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي اما عرضه فيبلغ عشرة اميال على الاقل . وقد تركت الجبال الانكسارية وراءه .

نهر الزاب الاعلى ومواصلة الرحلة :

تعبر القافلة في القسم العريض من هذا السهل ، نهرا كبيرا هو نهر الزاب ، ذلك المجرى العريق الذي مر بنا حديثه ، يسمى هذا النهر ايضا بـ«زاباتيوس» — Zabatus — في التاريخ القديم ، والذي عبره اكزانافون مع عشرة الآف من البشر كانوا تحت قيادته . يخترق نهر الزاب طريقه من اعالي تخوم الجبال العالية ، منحدرا على طول الجانب الشمالي لهذا السهل ، ثم ينحرف غربا لتبقى الجبال من ورائه ، وهو ليس ببعيد جدا عن تلك التخوم ، والتي تعتبر اماكن رئيسية مثل جيلو ـ — تَلّال ، وبـاس ـ — Bāas ، وتيخـومـو ـ — Tekhomo ، وتـيـاري ـ — Tiarre .

قرب المنطقة السفلى لتلك السلسلة الصخرية التي عبرتها القافلة هذا الصباح من خلال منحدر وعر ، مرت في طريقها باكثرية من الاكراد الذين كانوا يحتشدون من حولها ، وهم من عشيرة الهركي الكبيرة ، ويتواجد هنا وهناك كذلك قليل من عشيرة الشقاقية ـ Shiqāqis — من ارومية ، كان هؤلاء قد انسانوا في السنة الماضية بهذا الاتجاه نظرا لما دعت اليه مسألة النقص في المؤن ، وقلتها بسبب طغيان الجراد على ذلك الاقليم . والذي اصبح مشابها لغيره من الاقاليم فقد انسحب اليه الجراد من السهول الحارة : (سهل الموصل وسهل اربيل) الى السلاسل الجبلية المعتدلة المغطاة بالثلوج . . يقول بيركنس : «ولم نستطع ان نقدم أيّ دعم او مساعدة للجماعات التي مررنا بها ، وقد خلفوا في انفسنا اثارا محزنة رغم الثراء الذي ينعم به رؤساء ـ اغوات ـ الاكراد ، والذي تبدّى واضحا لنا من خلال اجتيازنا بين الآف القطعان من اغنامهم ، والمئات من خيولهم» .

غادرت القافلة تخم بـاياك — Bayāk — اثر عبورها السلسلة الصخرية ، والسهل الواسع الذي يعتبر جزءا من مقاطعة حرير — Harīr — وسكانه الاكراد من قبيلة الزوركي — Sūrkis — [٤] وتتوزعه عدة قرى التي تمتاز بفلاحتها الجيدة ، وحقولها الواسعة الغنية بمحاصيل الحنطة ، كان موسم الحصاد قد اقترب ، فيا لها من حقول ثرية بالسنابل الذهبية المتماوجة مع حركة الريح هنا وهناك .

كانت الشمس دافئة جدا ، عندما قطعت القافلة واديا عميقا يقع في قلب هذا السهل ، ثم دنت رويدا نحو الزاب ، لمسافة ميل قرب قرية كنديل — Kandīl — ، وتعتبر هذه القرية من احد المسالك التي تقطع النهر الى الموصل ، ثم توجهت القافلة الى الجنوب الغربي باعتباره الطريق الاقرب ، وقد نصبت خيامها قرب السلسلة الجبلية المنخفضة ، والتي تجاور سهل حرير في الجنوب ، قرب قرية هارش — Harash — ، بنحو ميل . . . اما هذه السلسلة فقد غطيت بشجيرات البلوط الصغيرة ، والتي كانت نادرة في ربوع السهل نفسه . «ولقد كان مهما جدا ان نجد

انفسنا الان قريبين جدا من نهر الزاب المشهور على امتداد التاريخ» ـ على حد تعبير صاحب الرحلة ـ .

على جانب ذلك المكان ، حيث خيم الركب ، توزعت عدة خيمات كردية ، وظهر فجأة رئيس عشيرة تلك المنطقة ـ باياز اغا ـ ممتطيا صهوة حصانه الرشيق ، وحاملا حربته في يده وقد احيط بحاشيته . . فاسرع نحوه دليل الرحلة ، واطلعه على رسالة حاكم راوندوز ـ حاجي محمد اغا ـ التي صرح فيها لمن يعنيه الامر بمراقبة ركب الرحلة وخيماته ليلا من فضول القرويين . . بعد وهلة من الوجوم ، كان الرعب مرتسما في وجوه خدم باياز اغا ، ويتابع بيركنس حديثه قائلا : «لقد كنا لعبة جيدة في يده . . ثم عاد دليلنا بعد ان اشبع بكلمات مؤذية . . وفي نهاية الامر امر هذا الاغا اربعة من رجاله ليتظاهروا بحمايتنا ، ولكن مع كل ذلك فانهم تراءوا لنا كونهم ابعد من مراعاة منزلته الرفيعة ، وبدلا من ان يرحب بنا مع جماعته ذوي النظرات الحادة ، فانهم تبخترروا في طريقهم وراء التلول عندما اخذنا ننصب خيامنا ، وقد خشينا منه كثيرا ، اذ ربما يضمر جديا فكرته الخافية ، ليلعب بنا في الليل لعبته او لربما يفعلها من خلال الحراس الذين انتدبهم لحمايتنا . وبناء على ذلك فقد قوّضنا خيامنا بمجرد طلوع الشمس» .

هكذا تحركت الرحلة ، مرة اخرى وقد قطعت حوالي ميلين عبر ـ زك زاك ـ لتصل بعد خفوت الشمس بفترة قصيرة قرية بابجيجيك ـ — Babajik ، وقد سادها الظلام ، وعلى سطح احدى بيوتها الصغيرة ، توزعوا في رقادهم ، وذهبوا نائمين منعمين بالهواء الطلق ، وذلك لغرض ان يكروا في مغادرتهم صباحا ، وقبيل اشتداد حرارة الشمس في رابعة النهار.

يصف ـ بيركنس ـ هذه القرية . فهي تقع في جنوب السلسلة الجبلية ، وتتكون من اربعين بيتا مبنية بالصخر . . ولحميها قلعة عالية ، وفيها جامع ذو حجم مناسب . وهناك على علو واضح من القرية يتواجد مدفن مقدس جدا يدعى ـ مون صوفي قره سولي ـ — Munsufi Qara Suli ، الذي تضلله الاشجار الباسقة ، وفي الحقيقة ، فان هذه القرية تبدو هادئة ، ويغشاها السكون ، ويعمرها روح الايمان نظرا لمكانتها الدينية وفي رحاب ذلك المكان يعيش المتصوفة والاولياء الصالحين(١) .

ان الكتخدا — Kathoden — ، هو نفسه الشيخ الذي يقيم مع جماعته من الدراويش ، الذين كانوا يصلّون ويرتلّون بعذوبة ، في هذا الجامع لساعة متأخرة من الليل ، وما ان ينهوا صلواتهم حتى يبدأوا بترجيع (لا اله الا الله) وذلك في صوت واحد ، متناغم في انسجامه وضبطه وموسيقاه . . . بعد ذلك تبدأ تلاوة اسم (الله) مائة مرة ، وبنفس الصوت والنغم(٢) .

استيقظ بيركنس مع جماعته في تمام الساعة الثانية صباحا ، ليأخذوا طريقهم ، ممتطين ظهور البغال ، وقطعوا مسافة خمسة عشر ميلا قبل طعام الفطور . . كان النصف الاول من الطريق يمتد باتجاهه نحو الجنوب الغربي ، ثم ينحرف نصفه الاخر لينحى الى الغرب قليلا وفوق سلسلة جبلية ، لتمر الرحلة بعد ذلك بواد وعر عميق تتخلله الاعمدة الصخرية ، وعند تلك النقطة وصلت الرحلة الى واد اخر ذي دائرة استعراضية ومجرى ينحدر من الجنوب الشرقي نحو الزاب . يدعى كل من الوادي ونهره بـ ـ بره بروش ـ

وتتراءى لميل على الجنوب من هذا الطريق ، قلعة تدعى بـ ديفيرى ـ Deveere — وتعتبر من احدى القواعد الامامية للمتمرد محمد باشا الراوندوزي في عصيانه على الاتراك .

بعد هذا كله يتحدث بيركنس عن عبوره لذلك القاطع من التوء الجبلي ، ويصف لنا صخوره الهشة وترابه الداكن ، وقد قطع مسافة كبيرة مع جماعته خلال هذا الصباح ، ووصلوا اخيرا الى القمة العليا من تلك السلسلة ، وباطلاعه نحو ذلك الامتداد من الاعلى ، توضحت له تلك المناظر الخلابة لكل من السهلين العظيمين . . سهل الموصل ، وسهل اربيل . ويتابع كلامه حين يذكر : بان تلك الجبال التي كنا قد قطعناها في بضعة ايام . . كانت غالبا ما تملأ احاسيسنا بالسمو الذي لا يوصف ! اما الان فان اتساع رقعة السهول المستوية قد اسرنا واخذ بالبابنا ، حيث كانت رؤاها بعيدة عن مخيلتنا ، وها هنا اصبحنا لا نجد شيئا يحول امام نواظرنا الا الارض والسماء .

سهل اربيل

يمتد سهل اربيل الهائل الخصيب ، او اربيلا — Arbila —[2] ، والتي انتزعها الاسكندر المكدوني — Alexander — من داريوس — Darius — على اليسار من امتداد مسلك الرحلة وجانبه الجنوبي ، وعلى اليمين منه يمتد سهل نوكر — Noker — الكبير ، وتتوزع الخصوبة بين الاثنين على حد سواء ، وتعتبر عقرة — Aqra — مدينة هذا السهل[1] .

اما نهر الزاب الكبير المتدفق فكان يتماشى على بعد واضح من المسلك . وكان الجبل المنخفض يحاذي مجراه على نطاق صغير ابعد مسافة الى الغرب . . وقد توضّح الان موقع الموصل على سهل الموصل ، وتوضحت ايضا نينوى القديمة .

يعلن بيركنس بعد ذلك بقوله : «كم هو اصيل وعريق ، اضافة الى كونه ساميا رفيعا . . منظر هذه الارض الكلاسيكية التي نجيل فيها عيوننا ، كونها المهد البكر من عرق الانسان وقد اجتلدت ركاما هائلا من الحوادث الخطيرة ، والاثار الحية في تاريخه ، وكلها منضوية بين نطاق كل من الدين والدنيا» .

يستمر بيركنس في حديثه ، حين يصل الى قرية بواهلين — Bawahalen — التي يتناول فطوره فيها . لقد كانت هذه القرية تتربع على مكان ساحر ، وتتعلق مستقرة عالية مطلة فوق واد اصطبغت سفوحه بالخضرة الوارفة ، وتكلل جرفه باشجار الفواكه منها التين والرمان ، وكرمات الاعناب . . ثم يصف بيركنس بيوتات القرية ، والتي يمر بين جدرانها في ذلك الصباح الباكر . . في القرية خمس عشرة عائلة كردية ، وثلاث عوائل يهودية . وقد تحدث سكانها معه وكانت ملابسهم سوداء اعتيادية والتي تدعى بـ كازيك — Kasik — . وفي هذه المنطقة لاحظ بان اشجار الجوز بدت اقل منها ممّا كانت عليه في المناطق العالية .

تريث صاحبنا بعد ساعات قليلة من الفطور مع جماعته تحت ظل رائع نشرته اشجار العرعر (الصنوبر) الكثيفة ، وزودت الخيول بالطعام والراحة ثم امتطيت ومضت في سيرها لاكثر من خمسة عشر ميلا ، ولم تتوقف حتى قرية ريشوان — Reshwan — . وكان تقدم الرحلة العام اثناء ذلك اليوم منجها نحو الجنوب الغربي ، وقد انتشرت حقول القمح والشعير في تلك المناطق التي تمتاز بترابها الاحمر ، عدا ما كسا البعض منها صخورا واحجارا . . . .

في نهاية ذلك الطريق التدريجي المنحدر ، لاح بيركنس منظر شامل وعريض لمدينة اربيل ، والتي بدا ارتفاعها واضحا للعيان ، وكانت تبعد بما يقرب من عشرين ميلا ، وقد احتضنها ذلك السهل العظيم الذي يطلق عليه نفس الاسم ، وكان الطريق ممتدا اليه على طرفي الجنوب والغرب لما استطاع البصر التقاطه حيث تنطبق السماء بالافق البعيد .

بينما كانت الرحلة تجتاز تلك التموجات الخصبة . . كان ظبيان جميلان قد طفرا فوق التلول وغابا من امامها مع لمح البصر . وقد ذكر لبيركنس بان مثل هذه الحيوانات البرية تنتشر بصورة كبيرة في اطراف هذه الربوع كالذئاب والدببة والخنازير البرية .

في نهاية مغادرتها الاراضي المتموجة ، انحدرت الرحلة الى ذلك السهل الغريني الكبير ، وهو احد السهول الخصبة العظيمة في الشرق ـ كما يذكر بيركنس ـ ، وقد اختفت ـ هنا ـ الاشجار الا ما كان منها قليلا عند الطرف الشمالي من هذا السهل ، مع استثناء نادر لبعض الاماكن منه . اما ما يمتاز به هذا السهل فهي تلك الحقول الكبيرة الشاسعة الامداء ، والغنية بمحاصيل القمح والشعير ، في هذه الايام حيث تتماوج السنابل الذهبية نحو كل اتجاه يحركها النسيم اليه حين يسري ، وهي متلبسة بثمارها المكتنزة من الحبوب . . اما الحشائش فقد كانت كثيفة حيثما كان التراب قد ترك دون زرع ، ولكن ما اقصر حياة هذا الضرع الطبيعي الدسم ، فسوف يسفح بحرارة الشمس ليذبل بعد ايام . . وتعتمد هذه الارض على الامطار فهي لم تسق اثر زراعتها او خلال ايام النمو .

يعود بيركنس ليصف لنا القرية التي كان قد توقف عندها ، حيث خيم عندها الركب ليلا ، هي قرية رشوان الكردية التي تتألف من حوالي مائة بيت ، مع بيتين اثنين لليهود الذين كانوا يتكلمون النسطورية . ولها اطيانها ، واسطحها الصغيرة ، وحيطانها المتشابهة ، وسقوفها الخشبية ، وهناك نهر

بوستورا — Bostora — الصغير الذي ينحدر من الجنوب الشرقي ، ليفصل اقليم راوندوز عن هذا المكان من مقاطعة اربيل ، حيث ان رشوان تبعد عنها ما يقرب من خمسة عشر ميلا ، اذ تقع اربيل على الطرف الجنوبي من هذه القرية .

اربيل وبستورا وعبور الزاب الاعلى

ان جزءا من مدينة اربيل ، مبني على تل مستدير ، ويطوق هذا الجزء بحائط او سور ، وينتشر ما يتبقى منها حول قاعدة ذلك التل الكبير . يعيش في اربيل حوالي ٢٥٠٠ او ٣٠٠٠ عائلة من الاكراد والاتراك ، مع عشرين عائلة نسطورية ، نصفهم يعاقبه[٥] ، والنصف الاخر نساطرة يتبعّون التعاليم البابوية[٦] . ويعلق بيركنس بعد ذلك بقوله : «ان ذلك يعتبر نقصا محزنا في مقدار سكانها على ما كانت عليه هذه المدينة في العصور القديمة» ويتردد عليها في اعمال التجارة الاكراد والعرب .

لم يدخل بيركنس مدينة اربيل ، بل مضى في طريقه ، مسترسلا في رؤاه الرومانتيكية ، اذ كان للطبيعة روعتها . اثرها الكبير في ازدياد تشوقه للمزيد من الاماكن الهادئة الجميلة ، بعد ان تعبت افكاره واعصابه في الجبال العالية ، رغم ما منحته تلك الجبال من آيات جمال الطبيعة ، ويعود بيركنس ليواصل حديثه ذلك ان الرئيس الكردي لمنطقة بستورا هو سيد حسن Sayed — Hasan — الذي يقيم في قرية رشوان : «ولكن عند مرورنا بقريته كان هو في زيارة راوندوز . وكان ولده قد خيم مع الناس في القرية التي تقع على ضفة النهر ، لنصف ميل الى الاعلى من مسلك الرحلة . لقد اعتنى ولده هذا بحراسة الركب من خلال اثنين من رجاله في اثناء الليل ، وقد بدا انه ميال للمساعدة اكثر بكثير من غيره ذلك الذي توقفنا عنده البارحة» .

يعيش الناس في هذه المنطقة في مخيمات لعدة اسابيع خلال هذه الفترة ، ثم تتراجع جماعاتهم الى البيوت الاولى ، وقد القوا بخيمهم ارضا ، او حجبوها عن الحرارة الشديدة التي ستلفح هذه المناطق بعد ايام ، وهذا ما يتميز به الطقس .

نهض جمع القافلة ، في الصباح الباكر من يوم ١١ مايس ، متقدما خمسة او ستة اميال على حواشي وادي بستورا الخصب ، وفي معابر وثنيات حقوله الثرية قمحا وشعيرا ، ثم وصلوا ضفة نهر الزاب الكبير . وقد لوحظ من خلال مرورهم باحدى تلك الحقول ، بان الناس كانوا مستبدين لحصاد الشعير ، وقد جلبت نظر بيركنس تلك الطريقة الخاصة في حصادهم ، ذلك انهم لا يحزمون الحبوب داخل اكياس ، ولكنهم يتركوها مودعة في اكوام ، وبصورة طليقة على نفس الارض ، حيث تبقى عدة اسابيع ، بغرض دوسها على الحقل نفسه في فترة لاحقة . وقد اعلمهم دليلهم بانها الطريقة المستعملة في الحصاد ، وانها تمارس على نحو كبير في تلك المنطقة ، وعند جميع المزارعين .

لا تزال القافلة سائرة في طريقها ، وقد اصبحت قريبة من كنديل — Kandil — وستأخذ مسلكها المنحدر نحو الموصل ، ثم تقطع نهر الزاب الكبير الذي يمجد بيركنس تاريخ تدفقه منذ عصور سحيقة ، ذلك التاريخ الموغل بالقدم . وتعبر القافلة في طريقها قرية كيردا ماميش — Girdamamish — التي يتدفق عندها نهر الزاب بقوة كبيرة ، خصوصا في هذا الفصل . ومن المحتمل ان يمتلىء مجراه بالماء لاكثر من نصفه ، ثم ينخفض منسوبه في بعض الاحيان ، وفي هذا المكان بالذات ، وعن عبور هذا النهر ، يصف بيركنس العوّامات ، ورجالها الذين يعبرون النهر بطريقتهم الخاصة . وقد رآه البعض يسجل بعض ملاحظاته التي من جملتها ذكره بان هذه المناطق قد سكنها في القدم الفرنج — Frank —[٧] (كذا) .

ان الاكراد قليلون في هذه المناطق ، على اية حال فانهم كانوا على درجة واضحة من القلق لتلك المخاوف المرتقبة ، ويتابع بيركنس ذلك بقوله : «انهم ارادوني ان اسجل اسماء بعضهم على سبيل الذكرى . . ويجب عليّ ان استجيب ـ على الاقل ـ مع مطلب رئيسهم الذي كان يتكلم بينهم ، والمدعو باخير — Bakhir — ، وهو صاحب العوامة التي عبرنا عليها» . وقد ذكر هذا الشخص لبيركنس بانه نفسه قد كان مسافرا او سائحا كبيرا قد رأى بغداد والبصرة (وبوشير الايرانية) .

قضى بيركنس مع جماعته عدة ساعات في العوامة ، وخلال ذلك الوقت كانت الصحبة عالية في روحيتها ، وكان الحديث مشوقا ولطيفا ، اما الشمس فقد اشتدت حرارتها ، وشعروا بالتغير الواضح في المناخ ، ثم نصبوا خيامهم في جانب

من شمال غرب الزاب ، ولم تعد الاشجار العالية تتراءى للناظر في هذه الاماكن ، وقد اشعرهم الجو فعلا بما يشبه الصحراء .

كان عبورهم للزاب لاول مرة عند مرورهم في اقليم راوندوز ، ذلك النهر الذي تتصل منابعه بالعمادية — Amadiyya —[٨] ، وهو نفسه الذي يتوزع بين باشويتي بغداد والموصل ، وتستوطن على امتداده اقوام كل من السوران — Suran — وبعدها بادينا — Badina — وذلك ضمن الامتداد الجغرافي لكل من الباشويتين ، وعلى رقعتها الواحدة تستقطب كل من راوندوز في الشمال الشرقي ، والعمادية ذات الاتصال اللاحق بالموصل الى الشمال منها .

يقلب بيركنس صفحة التاريخ مرة اخرى وهو في طريقه حين يذكر : «باني ساكون مهتما جدا ، للتعرف فقط ، على المكان الذي عبر منه اكزانافون ورفاقه الزاب ، مع جيشه الذي يتقدمه رماة الاسهم ، وقاذفوا المقالع . . ولكن ليست لدينا اية معلومات عن تلك النقطة التي توقف عندها ذلك المؤرخ ، ولربما كانت في موقع ادنى من مكاننا هذا ، وقد كان نهر دجلة قريبا الى جهة اليسار قليلا» .

ان النهر الذي عينه اكزانافون ذو عرض يقدر باربعمائة قدم[٩] ، ولابد انه قد كان منخفضا في ذلك الوقت ، ولم يكن عرض المجرى ذا اتساع كالذي قطعه بيركنس ، اذ يعتقد الاخير بان اتساعه هذا اليوم يبلغ سبعمائة قدم ، ولم تتواجد اية جسور على نهر الزاب ـ على حد تعبيره ـ .

تنتاب بيركنس افكار عديدة ذات تأصل ديني اسطوري للمراثي الغنائية الكلاسيكية ثم يعلق على اسم الزاب كون الاكراد يدعونه (زاى) — Zây — ، والنساطرة يدعونه (زافا) — Zâva — ، اما العرب فيدعونه (الزاب) — Zab — وهو ما يشتهر به هذا النهر الاصيل.

تتشابه في هذه المنطقة ملابس اهاليها ، فازياؤهم عربية ، وهي ملابس سميكة فضفاضة مع اثواب قطنية بيضاء ، متكيفة مع الطقس ، وهي متغايرة في سمكها ، وعباءات ثقيلة يتغطون بها ولكنها متماثلة مع الاثواب ، وقد ضمت عدة الوان مبهرجة . وكل هذا وذاك قد عكس صورة ما راه بيركنس من ملابس رثة بالية عند اكراد المناطق العالية .

غادر ركب القافلة ضفاف نهر الزاب الكبير عند غروب الشمس ، ومضى بارتفاعه في سيره خلال الوادي وعبر مجاريه ، ويصف بيركنس ذلك الوادي الحجري ، والحقول المحيطة به والحشائش التي تنمو في مداخله . ثم اعقبه التعاس بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، قطعت خلالها ما يربو على عشرة اميال . . واخيرا انتشروا وافترشوا الارض ، ولم ينصبوا خيامهم ، اذ جرى كل ذلك سريعا حيث اخذهم النوم ، وغطوا به عميقا[١٠] .

الارض الكلاسيكية

عبرت القافلة اثناء مسيرتها في يوم ١٢ مايس ، السهل الحشائشي الذي كانت قد خيمت عليه في دجى الظلام ، ووصلت الى حقول مزروعة حنطة وشعيرا . . فضمتهم تلك السنابل الناضجة وسيقانها النباتية المثقلة . ثم جنحت القافلة نحو الغرب بعد قطعها ١٢ ميلا ، ووصلت نهر الخازر — Khâzir —[١١] ، ذلك النهر الذي ينساب صافيا رقراقا ، وجاريا من نواحي الجبال ، وقاطعا سهل نوكر — Noker — . ويتدلى هذا النهر ، على بعد اميال عدة للجنوب من خط الرحلة ليتحد مع نهرالزاب الكبير ، ويبلغ عرض هذا النهر حوالي ١٥٠ قدما وقد سهل عبوره على القافلة . وهو نهر قديم، وتاريخي ايضا فقد اقتتل على احدى جوانبه الفسيحة كل من الاسكندر المكدوني وداريوس في معركة فاصلة . . ويؤكد بيركنس بانه من المستحيل تعيين او ضبط الموقع الصحيح لتلك المعركة او تحديده على وجه الاجمال . . ولكن من المحتمل بان هذه المعركة قد وقعت على بعد اميال قليلة لليسار من مسلك الرحلة ، بمسافة تقدر بنحو ٣٥ ميلا للشمال الغربي من اربيل .

يقول المؤرخ اريان — Arrian — : «ان نقطة كاوكاميلا — Gaugamela — تقع في اشوريا — Assyria — ، تلك النقطة التي تورط فيها كل من داريوس والاسكندر في قتالهما ، ومعركتهما العنيفة ، لقد كان مكانا صغيرا ، وذا اهمية ضئيلة جدا ، وتدعى تلك المعركة بمعركة اربيل ، اما المدينة فقد كان تواجدها حيا في قربها الى حقل المعركة ، وقرية كوكاميلا تقع في سهل اربيل على

نهر بامادوس — Bumadus — . وهي القرية التي اختارها داريوس ، ونصب عليها خيمته الملكية منتظرا الاسكندر الذي سحقه فيها ، وتركاها وقد اصطبغت ارضها بصفحة حمراء من الدماء القانية ، وتراكمت عليها الجثث[٥٠] .

واصلت رحلة بيركنس مسيرها ، وارتفعت من ضفاف نهر الخازر ، وقطعت مسافة تقدر بميلين ثم توقفت على تل مفروش بالحشائش ، وزودت الجياد بالطعام ، واستراح الركب بعد ان تناول الجميع طعام الافطار ، وكانت قد وصلتهم جماعة من النصارى اليعاقبة من قرية برطلة — Birtilla —[٥١] وتبعد هذه القرية ما بين ١٢ ـ ١٥ ميلا عن الموصل ، اما عن مسار الرحلة فانها تبعد حوالي اربعة اميال نحو جهة اليسار ، وكانت تلك الجماعة تتكلم السريانية الحديثة على نمط مفهوم من صاحب الرحلة بيركنس والذي يذكر بان الاختلاف قليل بينها وبين اللهجة العامية المتداولة في ارومية . . لقد كان بين افراد تلك الجماعة اناس عرب من نفس القرية ، والذين كانوا بدورهم يتكلمون السريانية ايضا ، ومنذ ذلك الحين تعرف بيركنس على العوائل العربية القليلة في برطله ، ومن هذه القرية توّجهت الرحلة صوب مدينة الموصل التي تبعد حوالي ٣٠ ميلا .

سهل الموصل

كان هنالك جبل منخفض يقع لميلين الى الشمال من المكان الذي توقفت عنده القافلة ، اما على الطرف الشمالي الغربي فتتواجد عدة قرى يزيدية[٥٢] . . وهناك جبل صغير يبعد بعض الاميال القليلة نحو الجنوب من خط سير الرحلة[٥٣] .

واصلت القافلة طريقها حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وقد قطعت سلسلة من التلول الحشائشية المرتفعة . وكان انقياد بيركنس مع ركبه فيها سهلا ومريحا وميسورا ، وقد بدت جماعات من العرب متوزعة فيها ، كونها منطقة مألوفة لاغراض الرعي والكلأ لقطعانهم من الاغنام في فصل الصيف . بعد ان صعدت قافلة بيركنس قمة المرتفع والذي عبروه بيسر انفتح امام اعينهم المنظر الجلّي الكامل لسهل الموصل او نينوى الشرقية بكل انفساحاته ، واطرافه المتحاورة مع الشمال والغرب والجنوب . . كان سهل الموصل ذا اتساع كبير في امدائه لابعد ما تصل اليه العين حيث يترامى بعيدا فلا يحدّه الا السماء . يقول بيركنس : ولقد منحني هذا السهل الفسيح الارجاء انطباعا قويا عن وجود شيء ضخم عظيم على الرغم من ان وصولي اليه قد جاء متأخرا» . ويتابع هذا الرحالة قوله : «دخلنا في هذا السهل المفتوح على رحبه ، وكانت حقول القمح نامية ومزهرة ومزدهرة ، وبدأنا نحث الخطى نحو الجنوب الغربي ، وكنا في اثناء عبورنا لهذا السهل متأثرين بحدة وشغف لامتناه. مع احوال نينوى القديمة ، تلك المدينة العظيمة التي تتوسط قلب سهل الموصل ، هذا السهل العظيم ، الهائل الخصوبة والمياه القادر ان يغذي الملايين من البشر» .

بينما كان افراد القافلة يجتازون هذا السهل ، ولا تزال امامهم عشرة اميال الى مدينة الموصل ، اخذهم الليل في طياته ، ولمّا تتراءى لهم هذه المدينة بعد ، اذ حجب الظلام مرءاها عنهم حيث كانوا يحتاجون لاجتياز المزيد من المسافة ، ولا سيما وان الموصل تتبوأ مكانها بانخفاض نسبي على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وترتفع امامها الروابي الأثارية شاهقة عالية على الطرف المقابل . . تلك هي آثار نينوى التي يعتبر علوها عائقا يحجب الانظار امام المدينة العريقة والحديثة من جهة الشرق .

اخذ بيركنس مع جماعته بالارتفاع مجتازا المسافة المذكورة على تلك الروابي ذات الشهرة الواسعة والصيت المفتوح في الدنيا . . واخيرا وصلوا ارضا انكسارية[٥٤] ، وقد ميزها بسهولة نظرا لقربها من آثار نينوى العظيمة . يقول بيركنس : «والغريب بان انفعالاتنا كانت في تلك اللحظات جياشة مضطرمة على الرغم مما اكتنفنا من ظلمات المساء حين اختراقنا هذا الطريق على الارض الكلاسيكية» . ومذ دخلوا تلك البقاع المحيطة بنينوى ذات النموجات المنكسرة ، فانهم لاحظوا السلاسل النظامية التي لايمكن تجاهلها كبقايا الاسوار القديمة المتبقية في خرابها ، والمتحاذية مع موازاة خط التلول . . . تلك الاسوار التي اشارت بوضوح الى مكان نينوى كالطلل القديم .

واخيرا ، وصل الركب المتعب الى قرية تقبع عالية بين الاثار القديمة ، تدعى باللغة التركية (يونس بيغامبر Yunus Pegamber—) ، اما في اللغة العربية

تدعى بـ (النبي يونس — Nabi Yunus — al). تحتوي هذه القرية على جامع كبير ، قائم على رابية عالية في سفحها مقبرة قديمة . ان الاعتقاد الراسخ بين القاطنين من الناس بان ضريح النبي المبجل يونس — Jonah — محفوظ في هذا المكان المقدس .

لم يتوقف الركب عند هذه القرية ، بل قطعوا ميلا واحدا ، ووصلوا الى الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وحطوا رحالهم وكانوا متعبين ، ولم يستطيعوا ان يتبينوا ما كان يحيط بهم من مناظر الا مياه دجلة المتماوجة مع حركاتها على نحو باهت من الضوء الخافت . . فخيموا على الارض لقضاء ساعات الليل[٣] .

جسر الموصل[٣٨]

اخذهم النوم عميقا بعد انتهاء رحلتهم الدراماتيكية . . كان النسيم عليلا منعشا على حافة نهر دجلة ، لم يفيقوا حتى مطلع الفجر حين كشف عليهم ضوء الصباح بنوره الوهاج بعد ان ارتفعت الشمس من مهجعها وغلبت على السماء زرقتها الجميلة بعد ان خفتت وبسرعة الالوان المبهوجة . . ولاح لاصحاب الرحلة ذلك النهر المهيب باتسيابه الهادىء . . انه النهر الشهير في الدنيا ذو العراقة التاريخية المتأصلة المتزامنة مع عصور سحيقة في القدم . وبدت امامهم مدينة الموصل على الساحل المقابل لنهر دجلة ، وهي ذات مظهر شرقي . . مع جوامعها العظيمة ومنائرها الشاهقة ، وابنيتها المتراصة . اما على جانبهم الشرقي فقد امتدت اطلال مدينة نينوى القديمة التي كانوا قد مرّوا من خلالها في الليلة المنصرمة[٣٩] .

يرتبط كل من جانبي النهر بجسر يمتد من قلب مدينة الموصل غربا نحو الحافة الشرقية . . . ويقوم هذا الجسر على زوارق مرتبطة بعضها بالاخر بصورة متراصة قاطعة النهر . وتتميز هذه الزوارق بانها قديمة مبنية على نحو بدائي وبصورة ضخمة ومسطحة ، مع علو بارز لقيدومها اذ ترتفع رؤوسها المدببة بشكل ملفت للنظر ، ورغم ان كل زورق لم يكن متروكا على الشاطىء بدون دعامة او سند ، الا انه يعوم منحدرا لاكثر من نصف ميل ، وعندما يراد سحبه فان ذلك يجري بواسطة ستة او ثمانية رجال يقفون صفا واحدا في رتل طويل على شاطىء النهر الممتد نحو الجسر[٤٠] .

وتعوم الزوارق الخشبية المشتدة بعضها مع البعض الاخر بواسطة الجلود المنفوخة الشبيهة بتلك الجلود المستعملة على نهر الزاب ، ولكنها اكبر بكثير . اما من الناحية الاخرى فان تلك الجلود المنفوخة تخضع لاستعمالات هامة اخرى ، فانها تستعمل لنقل المسافرين في نهر دجلة من الموصل الى بغداد ، كما وتستعمل ايضا في نقل البضائع التجارية والمؤن الذاهبة الى مدينة بغداد الواقعة الى ثلاثمائة ميل جنوبي الموصل . كما وتمتد في استعمالاتها الى اماكن اخرى ، وقد حدد تحم بغداد الكولونيل وليامز .Col — Williams المعّين والقائم باعمال التفويض الانكليزي في الموصل ، وهو الذي كان قد ذهب جنوبا الى بغداد منذ فترة قصيرة وذلك بواسطة عوّامة تحتوي على مائة قربة جلدية منفوخة قاطعا المسافة المذكورة اعلاه بطريق نهر دجلة في ستة ايام ، متوقفا على شواطئه خلال ساعات الليل ، وكان قد سافر معه بعض ابناء البلد من الموصليين الذين يستعملون الاخشاب الطوافة ، وكان لدى الكولونيل وليامز ثلاث او اربع كابينات صغيرة نصبها على تلك العوامة الكبيرة التي اشغلها هو وجماعته الكبيرة من المرافقين .

ذلك هو جسر القوارب الشهير لعبور نهر دجلة في الموصل ، والذي يستعمل عندما لم يكن النهر ذا منسوب عال ، بالوقت الذي تسحب هذه القوارب هنا وهناك متحاذية متوازية مع الساحل لترسو هناك وذلك في ظروف استثنائية طارئة عند ارتفاع مناسيب مياه دجلة .

ان نهر دجلة على العموم ذو مجرى منحدر ، وسريع الجريان الى حد بعيد ، متدفقا كنهر الزاب الاعلى ، وعليه فان اسمه — Tigris — [٤١] يدل معناه على ما يميّزه اذ يعني هذا الاسم (السهم) دالا على سرعته . ونهر دجلة ذو حوض رحب جدا . . وفي هذا المكان يشّق النهر هذه الارض الكلاسيكية العريقة شقّين فيفصل بها الموصل عن نينوى .

اطلال نينوى[٤٢]

تقابل آثار نينوى مدينة الموصل بالضبط ، وذلك بطول يقرب من ٤/٣ الميل . وتتباعد هذه الآثار عن نهر دجلة الفاصل

بمساحة منحسرة متداخلة ذات ارض غرينية منخفضة . لكنها تبدو مرتفعة بنحو بسيط عن المجرى . وربما كان قد تواجد هذا السطح الغريني وبهذا الشكل الطبيعي منذ عصر نينوى ، وربما كان نهر دجلة في مجراه القديم قريبا جدا من المدينة القديمة نينوى . اما في هذا العصر فانه يجري محاذيا لاسوار الموصل .

تتألف آثار نينوى من سلسلة تلال ، شبيهة باسوار قديمة ، وهي مشتملة على مساحة داخلية ربما تقدّر باربعة اميال طولا ، وحوالي الميلين عرضا . . وتبدو هذه المساحة مسطّحة وهي على الاغلب محروثة ومستغلة . وهناك على الجانب الغربي من هذه المنطقة المذكورة رابية طولية ونظامية الشكل (هي المسماة تل النوبة) ، واخرى على مقربة من الوسط وهي ذات شكل رباعي الزوايا ، ويقدّر علوها بخمسين قدما ، يتوضح ظاهرها كعدد مربع من الاعواد . وهذه الرابية قريبة من السطح الداخلي نحو القمة ، وتتميز بانحدارها الشديد من الخارج (هي المسماة تل قويونجوق)[٦٣]. ان المظهر الخارجي لهذه الرابية المتميزة منتظم الى حد بعيد . . وثمة افكار تجول حديثا عن القلعة والبلاطات والقصور المطوقة والمدفونة في قمة الرابية .

ان الحفريات الأثارية تواصل الان عملياتها في التنقيب عن البقايا القديمة ، ورغم النتائج العديدة والمهمة التي احرزت لحد الان ـ على حد ذكر جوستن بيركنس ـ الا ان هنالك عددا من الرجال الذين لازالوا يعملون حتى هذا اليوم ، وهم من الذين كانوا قد استخدموا من قبل المستر رسام H. Rassam[٦٤] ، والمستر لايارد — Layard —[٦٥] وزوجته ويعتبر المستر لايارد قائدا لهذا المشروع الكبير ، رغم انه شخصيا غائب الان في زيارته لانكلترا .

يذكر بيركنس في حديثه عن الحفريات والآثار في نينوى قائلا : «لقد انتابنا الذهول بمجرد فحصنا لتلك الحفريات ، اذ كانت بالنسبة لنا ذلك النوع النادر الذي كرّسنا له اوقاتنا . . اما التحدر من الاعلى والنزول الى باطن الارض فقد تمّ ذلك بواسطة الدرج الارضي الذي نظّمه الحفارون ، والمتألف من عشرين او ثلاثين قدما . وعلاوة على ذلك فان هناك نفقا عابرا من تحت الارض له شكل افقي ، وقد انحدرنا في داخله ، وفاجأتنا تلك القصور الرخامية القديمة فكانت الجدران المنحوتة بصورة جميلة جدا ، وقد انشرحت صدورنا وملأنا الاعجاب والسرور الذي لا يوصف . . فكل ما نراه في مشاهداتنا لهذه المتاحف العريقة جديد وغريب ومدهش لاعيننا . . وقد مررنا في الصالونات العظيمة المزينة بالواح رخامية شقّ مطبقة الواحدة فوق الاخرى ، علو كل لوحة حوالي ستة اقدام ، وطولها ثمانية اقدام ، اما سمكها فيتراوح بين ٧ ـ ٨ بوصات . ان التماثيل جميعها منحوتة ومنقوشة تصور مناظر روحية مختلفة ، كما وانها تحتوي مشاهد علمية متباينة فهناك المطاردة في المعارك ، وهناك تسلّح المحاربين بانواع عديدة من الاسلحة : الرماح ، الاقواس والسهام ، المقالع والسيوف . . اما المنتصرون فانهم غالبا ما يحملوا رأسين في يد واحدة ، احد الرأسين من لحيته ، والاخر من خصلة شعر الجمجمة ، ويهددون عدوهم بالسلاح في اليد الاخرى . وهناك مشاهد عديدة لقلاع محصنة ومطوقة . . كما وتبدو مشاهد عديدة اخرى لقافلة من الجمال ، والخيل والبغال . . وتجرى الانهار على جوانب تلك القلاع العالية الفخمة ، في حين تتلاعب الاسماك في مياه تلك الانهر . . ويبدو واضحا ذلك الطريق الحجري الواسع للقوافل والذي يترامى وراء تلك القلاع العظيمة ، ثم ينحجب عن الابصار . . وعلى جانب من خضم هذا العالم ، تتعالى شجرة نخل باسقة وهي متلبّسة باوراقها ، ومكتنزة باثمارها» . ويتابع الرحالة بيركنس حديثه عن اشوريات نينوى ووصفه لآثارها الثمينة فيقول : «ثم مضينا لمشاهدة الواح اخرى ، فوجدنا عددا اخر منها مخطوطا بالاحرف المسمارية ، وقد كانت واضحة وعلى نحو اعتيادي . . . ان الخطوط المسمارية اقل في نينوى مما هي عليه في النمرود — Nimrood —[٦٦] . لقد عبرنا عدة صالونات اطوالها اكثر من مائة قدم ، وتتماثل في اشكالها واجوائها الروحية ، وكانت بعض الواحها مشوبة بالسواد ، وكأن هذه البلاطات قد تساقطت محترقة ، وكانت هناك قطع من الفحم . لقد كان صعبا علينا جدا ان نحرّك تلك الصخور من اماكنها في هذه الحفريات وعملياتها ، وهنا يقوم العمال بتحطيم الصخور قطعا ليسهل بعد ذلك تحريكها . . ومن المحتمل ان نجد الصخور في النمرود

اقرب كثيرا الى السطح . وعلى أيّة حال ، فان فنون النحت هنا في نينوى وعلى اسوارها كاملة جدا ونظيفة[٦٦] . ان الملاحظة الجديرة بالذكر هي ان الصالونات والغرف ليست لها شبابيك ، وعليه فلابد ان سكانها كانوا يتلقّون النور من السقوف . اما الشيء الاخر الذي جلب انتباهنا وانظارنا هو ملاحظة تلك التماثيل الانثوية التي كانت معلقّة في الاعلى ، تستشرف القاعات وصحون الغرف . وكانت تلك التماثيل مخروطية الرؤوس ومرصوفة الذوائب» .

ويستطرد الرحالة بيركنس في حديثه عن آثار نينوى فيحكي لنا عن اثنين من التماثيل العظيمة ، هما على شكل ثورين كبيرين كانا في نينوى[٦٨] ولفترة ليست بطويلة منذ ذلك الحين ، اذ انهما كانا قد اكتشفا في خرسباد ـــ Khurnabad من قبل القنصل الافرنسي (المسيو بوتا[٦٩]) الذي باعهما بدوره الى الميجر راليونسون — Major Rawlinson[٧٠] . وكانا من اكبر الثيران المكتشفة . . لقد قطعت التماثيل على كتل رخامية بمساحة ١٥ قدم مربعّة ، وبسمك ٢ قدم ونصف . وكان كل تمثال يتألف من اربع قطع ، وذلك لغرض نقلها عن طريق نهر دجلة جنوبا الى بغداد . ومن ذلك المكان الى انكلترا .

جامع النبي يونس[٧١]

غادر بيركنس موقع الحفريات التي كانت تجري عملياتها على تلك الرابية العالية والمتكونة من قلعة البلاطات ، وتابع سيره جنوبا متوجها نحو السور الشرقي لمسافة تقرب من نصف ميل ، ووصل الى رابية اخرى (تل التوبة)[٧٢] وكانت بنفس مقياس الرابية الاولى ولكنها كانت تبدو ذات هيئة نظامية واذن مستوى وانها تتحولق حول قاعدة تلك المقبرة . وتقوم قرية على حافة منحدرها ، وفي الطرف الشمالي من هذا التل ، وعلى القمة بالذات ، يتعالى ذلك الجامع العظيم الذي يحوي ثاوياً ضريح النبي يونس (ع) ، ويطلق اسم (النبي يونس) على كل من الجامع نفسه والقرية التي تقوم معه . يقول الرحالة بيركنس : «لقد زرنا ذلك الضريح المقدس ، وهو ضريح صغير تحتويه غرفة معتمة في ذلك الجامع الكبير . ويتكون الضريح المقدس من صندوق كبير مقوّس الجوانب ، طوله عشرة اقدام ، وعرضه خمسة اقدام ، ويتراوح علوه بين ثلاثة الى اربعة اقدام ، ويبدو الصندوق مكسوا بباغطية متدلّية تؤلفها طيّات من الحرير والجوخ . اما اعمدة الزوايا الاربع فقد كانت مرتفعة قليلا فوق ذلك الصندوق ، وقد ذيّلت اواخر تلك الاعمدة ببكرات كبيرة من الذهب . . اما حيطان غرفة ذلك الضريح المقدس للنبي المبجل يونس (ع) فقد كانت موشاة بالفسيفساء فيبدو منظرها رائعا لما احتوت عليه من اشكال ورسوم جميلة . اما ارضية ذلك المكان فقد كانت مفروشة بالسجاد النفيس ، كما هو عليه الحال في جميع رحاب ارض ذلك الجامع الكبير» .

ويتابع الرحالة بيركنس وصفه الدقيق لهذا الجامع الشهير فيقول : «ان هذا الضريح مبجل من قبل الجميع ، وينظر اليه باحترام واجلال نظرا لقدسيته العظيمة ، ولا يسمح بالدخول اليه الا للقليل ، وبصورة مطرّدة من قبل الموصلين . وقد كانت حظوتنا بالدخول اليه قد احرزناها بواسطة المستر رسام ومساندته ورعايته ، واسبغ علينا هذا الرجل المزيد من لطفه وفضله ومعروفه . ويظن البعض بان هذا الجامع الكبير كان قد بني على اسس معبد قديم . . ومن غير ريب فاننا لم نعترض للاعتقاد الشديد او الثقة العالية في الرأي السائد هنا كون هذا الصندوق العظيم يحتوي على رفاة النبي يونس (ع) ، كما كنت قد ذكرت سلفا ، اذ اننا لا نشك ابدا في موقع نينوى ونحسب ذلك في تقديرنا لمكان هذا المرقد فربما كان متواجدا في منطقة مجاورة . . . المهم بان هناك العديد من كبار المؤرخين لمعظم الفترات التاريخية القديمة يوافقوننا ، وهذا ما يجعلنا مطمئنين باننا قد قدمنا قدرا كبيرا من البراهين المرضية من خلال وقوفنا على اطلال نينوى» .

خرسباد واماكن اخرى

تشتمل احاديث الرحالة بيركنس على ذكر خرسباد ، اذ يذكر بان المستر بوتا[٧٣] كان مواصلا ابحاثه في موقع خرسباد — Khursubad —[٧٤] . وتقع خرسباد على بعد حوالي ١٦ ميلا شمال شرق الموصل ، وتشكل رابية منفردة ذات ابعاد محددة في تخومها الى حد بعيد ، وتقع المنطقة كاملة على بعد ١٨ ميلا من

نهر دجلة شرقا ، في حين تبعد النمرود ميلين عنه وللشرق ايضا .

يقول بيركنس : «وتعطينا محصلة الجهود التي قام بها كل من المستر لايارد والمستر رسام افتراضا يطرحه الاخير لمشاهد الاماكن الثلاثة نينوى وخرسباد والنمرود كونها مواقع لمدة مدن مختلفة ، ولكن الادلة الحاضرة تشير الى اتجاه ذي علاقة مركزية يربط جميع المنطقة بنينوى ، فهي اسم عام لها . فالاسم نينوى هو الاسم العظيم في العصور المتقدمة والشبيه باسم لندن في عصرنا الحاضر ، فقد استطاعت نينوى ان تبتلع وبصورة كبيرة نسبيا العديد من الضواحي المتاخمة والمذكورة آنفا . وقد قدّر لنينوى ان تكون مدينة عظيمة واستثنائية لما فوق العادة لايستهي السفر فيها لمدة ثلاثة ايام كاملة . ومن الضروري ان تمتد لتسع اكثر من الوقت المذكور ، وتشمل المسافة الحقيقية على الاقل للمدن المحلية الثلاثة واحدة تجاه الاخرى . هذا ما ينظر اليه المستر رسام ، والى هذا الحد من الواقع القائم نسبيا ، والذي يعني بوضوح ما يلاحظ من الموصل لاطلال نينوى المقابلة لها على الطرف الاخر من نهر دجلة . . اما رسن ـ Resen — فتراءى آثارها واضحة من النمرود . .

اما الكالح — Kalih —[٣٥] في الشرقاط التي تبعد حوالي ٦٠ او ٧٠ ميلا جنوبي الموصل ، وعلى ضفة نهر دجلة ، فانها تحتل مع آثارها مساحة تقدّر بثلاث مرات الرقعة التي تغطيها نينوى . وتقع على الجانب الغربي من النهر ، وهي مدينة قديمة ، تحتوي في داخلها على اقسام متعددة من الاسوار ، والتي ترتفع عاليا في عزلتها شبيهة في تراكيبها بالمآذن . .

اما الرحبة[٣٦] ، فانها قائمة على نهر الفرات ، وهي التي يطلق عليها — Rehoboth — .

يعود بيركنس ليحدثنا مرة اخرى عن قرية النبي يونس فيقول : «لقد وجد المستر ريج — Rich —[٣٧] العديد من الآثار المقدّسة والمهمة جدا في رابية النبي يونس ، مقابل الموصل ، مع المزيد من الكتابات المنقوشة . ولو كانت عمليات الحفر والتنقيب في ذلك المكان قانونية او مشروعة الى حد كالذي جرى في غيره من الاماكن التاريخية ، فربما يعثر ضمن موجوداته على المزيد من التحف والانتيكات الثمينة ، ولكن تعتبر هذه الرابية ذات اعتبار مقدس جدا»[٣٨] .

بين آثار النمرود[٣٩]

بدأ الرحالة بيركنس مع صحبه مبكرا في زيارته للنمرود ، وقد ازمع على ان يكون رجوعه في ذلك اليوم نفسه . تبعد نمرود ١٨ ميلا عن الموصل ، وتقع مباشرة على الضفة الشرقية من نهر دجلة . ويتابع حديثه فيذكر بانهم عبروا في طريقهم الى نمرود بثلاث قرى صغيرة ، ولم يكن مظهر تلك القرى على مستوى من الاهمية ، ويقطنها العرب . ثم عبروا عدة مخيمات كبيرة (بيوت شعر) للعرب من البدو المنتشرين على الطريق الى نمرود . لقد كان سهل الموصل العظيم الواقع الى شرق نهر دجلة والمتاخم لشرق المدينة وعلى جانبه الجنوبي مأهولا بصورة متفرقة ، ويقال ان السكان قد تناقصوا كثيرا عن السابق بصورة ملفتة للنظر . . . ان البلاد مستوية ، وتغطيها خلال هذا الفصل خضرة القمح الثرية وبصورة شاملة ، وقد ابتهجت الحياة فيها اثر الحصاد . وفي النصف الاخير من طريقهم تناثرت امامهم تموجات عديدة من احجار الكلس ، ولم تكن تلك القطع المرمرية الجميلة ذات مساحات صغيرة ، بل كانت تحتل ابعادا كبيرة من المنطقة . وعبروا في طريقهم مجرى صغيرا من الماء والذي كان متجانسا مع النماذج الطبيعية التي لم ار مثلها ابدا ـ كما يقول الرحالة بيركنس ـ . . فالماء يقطع قنالا يمتد في اخدود ذي عمق يقدر بقدمين تؤلفها طبقة من طبقات الحجر الكلسية البيضاء وحولهم التلال التي كانت تتلألأ هي الاخرى ايضا ، مع انكساراتها بفعل الشعاعات المضيئة للشمس الساطعة . . وهناك ايضا حيث الينابيع الكبريتية القابعة في جوار هذه السلسلة المرمرية ، والتي ربما كان لها القوة الفعالة في تكويناتها البنيوية .

اخذهم الطريق بعد ان واصلوا سيرهم لميل واحد بهذا الاتجاه عند قرية السلّامية[٤٠] وحوالي ثلاثة اميال الى الآثار في النمرود ، التي برزت فجأة امام اعينهم ، وظهر العديد من ابرازاتها العالية الواضحة والتي كانت مخروطية ورفيعة ويبلغ علوها على الاقل ٧٠ قدما ، وهي اهداف ذات منظر اخاذ يجلب

الانظار . اما نهر دجلة فانه ينحدر لميلين على الاقل من الآثار المذكورة ، ولكن القسحة الواقعة بين الاثنين تعتبر منخفضة ، وهي ذات تربة غرينية الفتّها التكوينات الحديثة الظاهرة والمتباينة .

ويتابع بيركنس احاديثه في رسائله قائلا : «هناك شك كبير بان نهر دجلة كان يجري ضيقا اوحبيسا تحت اسوار المدينة القديمة ـ نمرود ـ ، كما كان ظني الذي ذكرته مسبقا عن حال نينوى مقابل الموصل» . ويصل بيركنس مع مرافقيه منطقة النمرود ، فيبدأ بوصف تلك الآثار المدهشة التي رآها على حين غرة . . . وما تتضمنه من الاسوار ، والصالونات القديمة ، والقطع المعمارية البهية والتي منحته انطباعا كونها لازالت جديدة ، ولامعة وكاملة . . ثم ينتقل الى ما يراه داخل تلك الاسوار المغلقة ، فيصف الحروف المسمارية ، ورؤيته لمعلومات كاملة عن الرجال والمقامات المعلاقة ، ثم يرى ثورين يشبهان الى حد ما فيلين كبيرين ، ولكل من الثورين الكبيرين جناحان ورأس انسان . . . جماعات متنوعة ، ومشاهد كما لو انها كانت تقابل جمهور ملكي الاقتحام ، دفاع القلاع ، الرجال الجبابرة ، الرؤوس والاجنحة والنسور . . وتماثيل تحكي عن رجال تحمل ازهار الاناناس في ايديهم . . وكانت جميعها طبيعية وواقعية في تصويراتها ، ومشتركة في تناسقها الفني .

ان المكتشفات الاولى كانت قد ارسلت الى انكلترا ، اما المكتشفات الاخرى فانها تنتظر دورها وهي لازالت تحت التراب لم يكشف النقاب عنها . . ويشرف المستر لايارد ايضا على عمليات الحفريات في النمرود .

ويزيد بيركنس من شروحاته بعد رجوعه من النمرود الى الموصل في مساء اليوم نفسه (١٦ مايس) ، عندما يلتقي بمسافر انكليزي كان يقوم باعمال المسح والفحص والمعاينة في نفس المكان ، والذي يشرح له عن مشاهداته في البلاط وصالوناته وموجوداته ، وصوره ، وتماثيله . . . الازهار ، الحيوانات ، الملوك ، الجدران ، النقوش ، الاجسام البشرية الطويلة ، ورؤوس بشرية اخرى باجسام حيوانية . . كلها باقية ومحفوظة منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وكلها تنشق عنها الارض الان لتنهض من تحت التراب جديدة ومضيئة وفي هذا الفجر بعد ان نامت طويلا ولقرون عديدة ـ على حد تعبير صاحب الرحلة ـ .

ويتابع تسجيلاته فيقول بان مدينة النمرود تختلف عما وجدناه في تلك الرقعة المقابلة للموصل ـ نينوى ـ ، فالقطع الفخارية الطينية المتواجدة في النمرود تبدو اكبر للعيان ، وكذلك التماثيل والمنحوتات التي كان بعضها صغيرا في الموصل ، واكثر صغرا من الحياة نفسها بينما تكاد تكون الصورة معكوسة في النمرود ، كل شيء اكبر ، فمثلا الثيران والاسود تبدو اكبر في احجامها من احجام الفيلة . وينتقل بيركنس ليشرح عن طبيعة البناء في النمرود ليصل متسائلا فيقول : «ولكن من هم اولئك الرجال البناة ؟ وما نوعهم ؟ اولئك الذين انجزوا كل هذه الاعمال الخارقة الجبارة . . من الموجب حقا انهم كانوا فنانين بكل ما تعنيه الكلمة من معان . . في تلك الايام الغابرة والمبتدأة من عمر التاريخ البشري ، والحضارة الانسانية ، فلقد كانت لهم طرائقهم والأتهم الوافرة الواسعة» . ثم يستطرد معقبا على كلامه هذا بالمقولة الشهيرة بان : «ليس هناك جديد تحت الشمس» . ثم يكمل قائلا : «نحن نتباهى فخرا واعتزازا بالاختراع الحديث للزجاج ، ولكن حتى هذه المادة قد وجدت في آثار نينوى»

على بعد مسافة تقدّر بـ ١٢ ميلا جنوب شرق النمرود ، يقع هناك مصب لقناة مائية قديمة تبدو آثارها من اوصال الصخر ، وينقاد مجراها نحو نهر الزاب (الاعلى) ، والذي ربما كان مستعملا لايصال المياه الى المدينة التي احتلت موقع هذه الآثار واطرافها[٨٦] .

النهايـــة

قبل ان يختم بيركنس تسجيلاته ويغيب عن موضوع هذه المناحف الطبيعية التي تّم اكتشافها وما يتواجد فيها من انتيكات ثمينة ، وما تحفل به من كنوز هذه الارض الكلاسيكية . . يقول بيركنس : «يمكنني ان اذكر بانه يتواجد على بعد حوالي خمسين او خمس وخمسين ميلا جنوبي غرب مدينة الموصل آثار مدينة قديمة هي الحضر او مدينة — Hatra —[٨٧] ، والتي تتعالى فيها الاثار

الصخرية ظاهرة على السطح او تلك التي تمتد تحت طيات الثرى . ولقد زار تلك الآثار مؤخرا الكولونيل ولياميز والمستر رسام .

واخيرا ، يختم الرحالة بيركنس احاديثه وتسجيلاته هذه كلها من خلال رسائله فيوصي جميع اولئك الذين يشعرون بالاهمية للوصول الى حد ابعد من المعرفة والاطلاع على آثار نينوى الاشورية ، والارض الكلاسيكية بالرجوع الى الكتاب الذي كتبه وطبعه مؤخرا المستر لايارد[٣٣] ، ويتابع قوله : «ورغم اني لم ار الكتاب لحد الآن ، ولكن تتأتى ثقتي بذلك من خلال معرفتي للرجل ، فان كتابه له في طبيعته ، واتساع مداه ، ووفرة مواده ، ما ليس عندي اي شك بانه الكتاب الذي سيحظى بالاهمية ، وتصب السبق في هذا المضمار[٣٤]

ملاحظات وتعليقات

١ ـ شملت هذه الرحلة ٤٩ صفحة من المجلة المذكورة في المتن ، والتي سأشير اليها في هذه الملاحظات بـ(JAOS) .

٢ ـ هي مجلة استشراقية امريكية ، تأسست في بوستن سنة ١٨٤٧م ، وعنيت بالقضايا التبشيرية والاستشراقية بواسطة مراسليها الذين اختصوا بمواضيع الشرق الحساسة والمتنوعة .. وتوزعوا في انحاء مختلفة منه عصر ذاك . ولا زالت هذه المجلة تصدر حتى هذا اليوم بعد ان صبغت بالطابع الاكاديمي ، وذلك عن «الجمعية الاستشراقية الامريكية» ذاتها ، وساهم في تحريرها والكتابة فيها العديد من المستشرقين الغربيين . لقد ورد ذكرها عند نجيب العقيقي في كتابه «المستشرقون» ، الجزء ٣ ، وتحت بند ٦٢ (= الجمعيات والمجلات الشرقية) في حديثه عن استشراق الولايات المتحدة الامريكية (= الفصل العشرون) . قال العقيقي : بان مجلة : 'Journal of the American oriental society' هي صحيفة الجمعية الامريكية الشرقية ، تأسست سنة ١٩٠٦ ، وهي تصدر كل ثلاثة اشهر في نيوهيفن بالولايات المتحدة الامريكية (انظر : العقيقي ، المرجع اعلاه ، جـ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٩٩١ . لقد اخطأ العقيقي في ذلك ، وربما قصد غيرها .. ولكنه في كل الاحوال لم يذكر «المجلة» التي نحن بصدد الاعتماد عليها .

٣ ـ كتب عن ذلك بمزيد من التفصيلات : المطران سليمان صايغ في كتابه ، «تاريخ الموصل» (نفائس الاثار : درس الاثورولوجي) ، لبنان ، ١٩٥٦ ، ص ٩ ـ ٥٦ .

٤ ـ JAOS, vol. 2, 1851, pp. 70 — I.

٥ ـ 'Raye of Light'

٦ ـ 'Residence of Eight Years in Persia', 1843.

٧ ـ 'Missionary Life in Persia', 1861.

٨ ـ 'Historical Sketch of the Mission to the Nestorians', 1862.

٩ ـ هذه هي الترجمة الحرفية الكاملة لحياة الرحالة جوستن بيركنس التي نضعها الموسوعة :

'Who was who in America : Historical Volume 1607 — 1896, Chicago, ed. 1967, p. 467.

١٠ ـ The Letter No. 1, dated 25/04/1849; JAOS, op. cit., p. 71.

١١ ـ The Letter No. 2, dated 26/04/1849; ibid., pp. 71 — 2.

١٢ ـ سولدوز : مقاطعة كبيرة ، لها امتداداتها الواسعة ، وتجتمعها خليط من عشائر كردية هي : الزازا والماش والمكري .. راجع عنها :

W.R. Hay, Two Years in Kurdistan, London, 1921, p. 126.

١٣ ـ The Letter No. 3, dated 27/04/1849; JAOS, op. cit., pp. 72 — 3.

١٤ ـ راجع عن ساوج بلاق» في :

The Encyclopeadia of Isted, vol. 3 p. 188.

١٥ ـ The Letter No. 4, dated 28/04/1849; JAOS, op. cit., pp. 74 — 5.

١٦ ـ The Letter No. 5, dated 29/04/1849; ibid., p. 75; see also, Letter No. 6, dated 30/04/1849, loc . cit.

١٧ ـ ملك كاليه شين : كان لهذا الملك الاستراتيجي (= اشنو ـ راوندوز) شأن كبير في تاريخ الحروب الرومانية ـ الفارسية سنة ٢٩٨م ، وذلك بين نرسيس القائد الروماني وخسرو بيرويز الفارسي (عن منسوخات الاركولوجست راولينسون ، ص ٧٤ ـ ٨٠) . من طرف آخر فقد كانت القوات المقولية مستمدة من هذا الملك الهام في حركاتها الحربية وتنقلاتها بين الاقاليم . (انظر : ع . العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ١ ، ط١ ، بغداد ١٩٣٩ ، ص ٣٧٧) . لقد اكتشف البعض من الآثاريين العديد من الآثار التاريخية في مضيق كاليه شين ، وهي عبارة عن مشارات والواح مكتوبة باللغة الآشورية ، وتوضح تلك الآثار اخبار عن الخلديين في حركاتهم الحربية ومناوشاتهم مع الآشوريين ابان عهد الملك الاشوري شلمنصر الثالث ٨٢٤ ـ ٨١٩ ق.م ، واحلال اللغة الخلدية محل الآشورية التي كانت تعتبر اللغة الرسمية ولغة الأدب في الامبراطورية . راجع التفاصيل التاريخية عن ذلك :

'Cambridge Ancient History', vol. I, (Khuldiyeen), pp. 211 — 225; see also, Morris Jastrow, The Civilization of Babylonia and Assyria, London, 1915, p. 245.

ويرخط الحدود بين العراق وايران بضيق كالبه شين البالغ من الارتفاع ٣٤٨٠م (عن : طه الهاشمي ، جغرافية العراق ، ط٢ ، بغداد ١٩٣٦ ، ص٢٩) .

١٨ ـ هو الكولونيل (السير ـ فيما بعد ـ) هنري كريسويك رولينسون ، من اشهر المنقبين الآثاريين البريطانيين في القرن التاسع عشر . . . والمقيم بشؤون شركة الهند الشرقية ببغداد للفترة ١٨٣٤ ـ ١٨٥٥م ، وكان قد اخذ على عاتقه مسؤولية الانهاء العام للحفريات الآثارية في العراق ، والخاصة بالمتحف البريطاني بعد الدور الذي كان مناطا بالآثاري البريطاني الشهير هنري لايارد . اشترى رولينسون للمتحف البريطاني ثوران بجنحان «براسي انسان» . وهما من تماثيل خرسباد العائلة . . (المعلومات عنه في النشرة الحديثة لقسم آثار غرب اسيا في المتحف البريطاني ، سنة ١٩٧٩ ـ منحوتات البلاط الاشوري ـ)
(British Musuam : Dept. of Western Asiatic Antiquities) .

١٩ ـ The Letter No. 7, dated 01/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 75 — 6.

عند هذه العبارة تخطىء هيئة تحرير المجلة (JAOS) الدكتور بيركنس بالاعتماد على منسوخات الميجر رولينسون وتحيل القارىء الى الحوليتين التاليتين .
Journal of Royal Asiatic Society, vol. X, p. 25; and Journal of Royal Geographical Society, vol. X, p. 21. See, JAOS, op. cit., p. 76 n.

وللاستزادة والتأكد من صحة الاحداث والتفاصيل التاريخية ، راجع :
Arrian, The Campaigne of Alexander, tr. by Aubrey de Selincourt, Introduction and Notes by J.R. Hamilton, Reprinted in Britian, 1978.

٢٠ ـ The Letter No. 8, dated 02/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 77 — 8.

٢١ ـ للمزيد من التفاصيل الجغرافية وطبيعة منطقة الحدود العراقية ـ الايرانية ـ التركية ، انظر : طه الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ـ ٢٩ .

ولتوخي الدقة في المعلومات والشروح والخرائط ، راجع :
Major Lloyd 'The Geography of the Mosul Boudary', Geographical Journal, vol. lvii (1926).

٢٢ ـ للمزيد من التفاصيل عن الاقليم (سرادشت) ، انظر :
Walter, B. Harris, From Batum to Baghdad, London, MDCCCXCVI, pp. 219 — 225.

٢٣ ـ البابلس : من العشائر الكردية التي تقطن في قضائي اوشنو وراوندوز في محافظة اربيل . . وتنقسم الى اقسام كبيرة : بيران ومنكور وماش والتي يقطن منها في منطقة رانية . وقد تعرض الميجر راولينسون لذكر هذه العشائر اثناء دراسته القيمة لعاصمة (مديه) القديمة ، وذلك اثناء رحلته الفيدة للمنطقة وفحصها ميدانيا سنة ١٨٣٦ هـ . . .
Notes on a marche from Zohab at the foot of Zagros, a long the mountains to Khuzistan (Susiana) and from the nee through the provinces at Luristan to Kermenshah in year 1836 by Major Rawlinson, of the Bombay army serving in persia, p. 33.

The Letter No. 9, dated 03/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 78 — 82. ـ ٢٤

٢٥ ـ لم اجد للكولونيل ولياميز ترجمة خاصة به . . اما ارتباطه السياسي فيكون مع القنصل البريطاني العام المقيم في بغداد ، والاخير يرتبط دبلوماسيا بالسفير البريطاني المتواجد في مقر عمله بالعاصمة العثمانية (استنبول) . ومن المؤكد ان للكولونيل ولياميز اوراق سياسية ، ورسائل دبلوماسية ، ووثائق تاريخية اثناء تواجده في الموصل . . وربما سيأتي اكثر من باحث بعدي ليبحث في ذلك مستقبلا ويستخلص معلومات نادرة عنه وعن الموصل .

٢٦ ـ محمد باشا الذي اشتهر بـ «كورة اي والاحورة» ، نظرا لاصابته بعلة في احدى عينيه . راجع اخباره المتضبة عند المؤرخ لونكريك في كتابه الشهير : «اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» ،
S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925, pp. 282 — 6.

٢٧ ـ للمزيد من التفاصيل التاريخية ـ التحليلية عن محمد باشا كورمير (الراوندوزي) ، ودوره المؤثر السالب في الاحداث السياسية العامة لعراق القرن التاسع عشر ، انظر بالالمانية ، الاطروحة الاكاديمية الرصينة : («دكتوراه») من جامعة هامبورك بالمانيا الغربية :
Jemal — eddin Nebez, aus Sulaimani, Kurdistan Der Kurdische Furst Mer Muhammed — i Rawendizi genannt Mir — i Kora im Spiegel der Morgenlandischen und Abendlandischen Zengnisse (Ein Beitag Zur Kurdischen Geschichte) ; Dissertation Zur Universitat Hamburg, 1970.

(هذه الاطروحة تحتفظ بها مكتبة جامعة هامبورك في المانيا الغربية)

٢٨ ـ تعتبر (خوي ـ Khoy) من المراكز الاستراتيجية الشهيرة التي لعبت دورا مهما في التجمعات العسكرية في فترات متلاحقة وعديدة من التاريخ ، كما ان لها بحيرتها البارزة كحلقة وصل لخطوط التجارة الشرقية ، انظر :
The New Encyclopeadia Britannica, vol. v, London, 1974, p. 796.

The Letter No. 10, dated 04/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 82 — 6. ـ ٢٩

The Letter No. 11, dated 05/05/1849; Ibid., pp. 86 — 9. ـ ٣٠

The Letter No. 12, dated 06/05/1849; Ibid., pp. 89 — 90. ـ ٣١

٣٢ ـ مدينة راوندوز : هي مدينة قديمة تمتاز بموقعها الاستراتيجي الفريد . . كانت ذات مركز يجمع خطوط المواصلات التجارية التي تربط الموصل ـ باشنو نحو اذربيجان . وراوندوز ، هي المدينة القلعة التي شهدت على مقربة منها انتصارات الروم على الفرس سنة ٦٢٧م . ولهذه المدينة مكانتها في العصور العراقية الحديثة ، اذ كانت تعتبر احد المراكز العسكرية ـ الاستراتيجية لترابط الجيوش العثمانية ضد الفرس . واسمها (روان) ولفظ (دز) ـ في اللغة الفارسية القديمة ـ معناه «القلعة» . وتسكنها عشيرة الراوندي التي اختلطت بها عشائر اخرى . راجع عنها : (محمد امين زكي ، تاريخ الكرد والكردستان ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ترجمه عن الكردية : محمد علي عوني ، ص ٣٩٣ . اما الاصل ، فقد طبع ببغداد عام ١٩٣١) .

وللمزيد من التفاصيل الطبوغرافية والمعلومات الاجتماعية والانثروبولوجية عن راوندوز ، انظر :

A.M. Hamilton, Road Through Kurdistan : The Narrative of an Engineer in Iraq, with a foreward by Major — General Row An — Robinson, London, (n. d.), pp. 270 — 9.

٣٣ ـ يصف المؤرخ البريطاني لونكريك ، القسوة التي اتصف بها محمد باشا كورمير كونها «قسوة عادلة» ـ على حد تعبيره ، دون ان يلغت ليدرس ملها الفظائع التي اقترفها كورمير ، انظر : S.H. Longrigg, op. cit., pp. 285 — 6.

للاستزادة عن شخصية كورمير وسياسته القبلية والمحلية ، انظر الفصل الاول والفصل الثاني من اطروحة جمال الدين السليماني المذكورة آنفا (راجع الملاحظة ٢٧ اعلاه) .

٣٤ ـ راجع عن جماعات «التيارية» بالتفصيل في كتاب لايارد الشهير :

H.A. Layard, Nineveh and its Remains, ed., intro., and nots: H.W.F. Saggs, London, 1970, p. 156.

٣٥ ـ القوش : هي القرية النصرانية التي وصفها المستر لايارد في كتابه آنف الذكر (= م . رقم ٣٤) ، وذكر بانها تخطن من قبل الكلدانيين الاتحاح الذين تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي ـ الروماني ، بموجب التحضار العام للعرف الديني . وتحوي القوش معبدا للنبي ناحوم الالقوشي ـ كما يدعي ـ ، والمكان مقدس من قبل المسلمين والنصارى واليهود ، ويقع بالقرب منها دير الربان هرمزد الذي يقوم على سفح جبلها ، انظـــــــر Ibid., p. 185.

٣٦ ـ ان هذا الاسلوب الكلاسيكي في البناء ، انما يرجع الى العصور العراقية الغابرة والسحيقة في القدم . وهو الاسلوب الذي تمثله طرز البناء المتنوعة عند البابليين والاشوريين ، انظر التفاصيل : M. Jastrow, op. cit., p. 216.

The Letter No. 13, dated 07/05/1849; Jaos, op. cit., pp. 90 — 4. ـ ٣٧

اظن ان هذا الممر الضيق الذي يقصده بيركنس هو الممر الشهير الذي يعرف اليوم بـ«ضيق كلي علي بيك» والواقع بالقرب من راوندوز .

٣٨ ـ تركور : كانت تحتل مركز امارة تحت ايدي عشيرة «براادوست» ولكنها ضعفت فتلاشى شأنها ، وتقلص عدد سكانها ، انظر : م. أ. زكي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ . اما بخصوص العائلة الكردية ومواصفاتها ، فقد كتب توماس بويس فصلا كاملا عنها ، انظر :

Thomas Bois, Connaissance des Kurdes, Beyrouth — Khayats, 1962, chap. No. 7.

The Letter No. 14, dated 08/05/1849; JAOS, op. ـ ٣٩ cit., pp. 94 — 9.

٤٠ ـ عشيرة السورجي من العشائر الكردية الكبيرة التي تنتشر في محافظة اربيل ، ويبلغ عدد عوائلها ٤٣٠٠ اسرة . وتنتشر منتشرة فيما بين الشاطىء الشمالي لنهر الزاب الصغير وراوندوز ، ولهم خمسون قرية ، انظر : م. أ. زكي ، المرجع السابق ، ص ٤٠٨ .

٤١ ـ راجع عن الحصونة الاكراد ، كتاب المؤرخ الانكليزي :

J.S. Trimingham, The Orders in Islam, Oxford, 1971, pp. 124 — 5.

The Letter No. 15, dated 09/05/1849; JAOS, op. ـ ٤٢ cit., pp. 99 — 102.

٤٣ ـ يقول صاحب الرحلة في احد هوامش رسائله : ـ في معرض حديثه عن نهل اربيل : ـ «ويدعى هذا النهل من قبل الاكراد والنساطرة هولير — HOLER — ، ويدعى من قبل (الاتراك) اربيل — ARBIL — ، (انظر : Ibid., p. 103 n.) . ان التسمية عربية منذ القدم ومأخوذة من لفظ دار بنيلو» . ومن دون شك فان صاحب الرحلة قصد بالاتراك سكان المنطقة بمختلف انتماءاتهم العرقية والذين كانوا تحت حكم السيطرة العثمانية عصر ذاك .

٤٤ ـ راجع بشأن مدينة عقرا : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٦ .

٤٥ ـ النهالية هم من السريان الارثوذكس الذين يؤمنون بان المسيح ذو طبيعة وحدوية متكاملة امتزج فيها عنصر الاله بعنصر الانسان . التفاصيل عند الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ٢ ، ص ٤٥ .

٤٦ ـ النساطرة النهوريين : هم من النصارى الكاثوليك الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما ، وقد تكثلكوا في بداية القرن التاسع عشر . للمزيد من التفاصيل التاريخية ، انظر :

Sayyar K. Al — Jamil, A Critical Edition of al — durr al — Maknun fi al — Ma' athirat — Madiya min al — Qurun of Yasin al — Umari (920 — 1226 A.H. 1514/1515 A.D. — 1811/1812 A.D.) ; ph.D. Thesis, St. Andrews Univ., Scotland, 1983, 3 vols., (The Library of St. Andrews Univ.).

٤٧ ـ الفرنكيون : هم «فرنجة» اوربا عند الاغريق والعرب . ان الرأي الذي يطرحه بيركنس هنا ، هو رأي خاطىء ، فالعراق لم يشهد خلال حياته التاريخية الطويلة ، اي شكل من اشكال استيطان الاوربيين سواء كانوا من «الفرنجة» ام غيرهم . . او استقرارهم . ولم تشهد هذه البلاد العريقة ، الا بعض الحملات الاغريقية والرومانية التي مرت عبر شمال العراق لحرب الفرس . . وسرعان ما تبدد ، ولم تترك آثارها على تاريخية العراق . اذن ، نستنتج بان البلاد العراقية لم تتأثر سكانيا بالرومان او الاغريق لديها . . ولا بالفرنج خلال عصور الحروب الصليبية في التواريخ الوسيطة ، ولا حتى الحملة النابليونية في التاريخ الحديث . . اذا استثنينا حركة التجار الاوربيين المتنوعين الذين كانوا الرادا ، فاذا كان من هؤلاء من استقر في دمشق وحلب فان بغداد والموصل لم تشهدا استقرار وتوطن اي «اوربي» . ان العراق اول ما شهد من جماعات اوربية انكلوسكسونية على ارضه ، انما جاء ذلك بعد الاحتلال البريطاني للعراق خلال الحرب العظمى الاولى في التاريخ المعاصر .

٤٨ ـ العمادية قلعة قديمة وعريقة في تاريخها الوسيط ، تقع على بعد ١٦٨كم شمال الموصل . اشتهرت كثيرا في العصور الوسطى بعد ان بنى قلعتها عماد الدين زنكي على انقاض قلعتها القديمة «بامات» وسميت باسمه . اتخذت في اوائل القرن التاسع الهجري مركزا لامارة البهدينان التي ينتسب امرائها الى الخلفاء العباسيين في بغداد . راجع التفاصيل عند : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٦ ، ص٢١٤ .

٤٩ ـ «انظر كتاب Anabasis ، الجزء ٢ ، الفصل ٥٤ ، والجزء ٣ ، الفصل ٣ وهامش بيركنس : (JAOS, op. cit., p. 108)

The Letter No. 17, dated 11/05/1849; JAOS, Ibid., _ ٥٠
pp. 108 — 9.

٥١ ـ الخازر : نهر بين اربل والموصل ، ينبع من جبلي عطبتا والصراتية وهو الموضع الذي جرت عنده وقعة تاريخية شهيرة بين عبيد الله بن زياد وابراهيم بن مالك الاشتر النخعي في ايام المختار ، وفيها قتل ابن زياد سنة ٦٦هـ ، عن : ياقوت . . ، معجم . . ، جـ٣ ، ص٣٨٨ . وانظر : ياسين العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق : سعيد الديوجي ، الموصل ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٤ .

٥٢ ـ انظر : «كتاب اريان — ARRIAN — الجزء ٧ ، الفصل العاشر والحادي عشر . ثم الجزء ٣ ، الفصل الثامن والحادي عشر» هامش صاحب الرحلة : (JAOS, op. cit., p. 110) .

لابد لي ان اقدم للقارىء نبذة مختصرة عن المؤرخ اريان — Arrian — هو فلافيوس اريانوس اكزينوفون — F.l. Xenophon — الاغريقي الشهير ، ولد في نوكوميديا عاصمة اقليم بثينيا الروماني لسنوات خلت قبيل سنة ٩٠ ب.م. درس الفلسفة ، واستفاد من تجاربه ودوره في السياسة الرومانية في الكتابة والسياسة والتقدم العسكري في السنين اللاحقة ، وله مأثورات عديدة ، ولقد تقاعد عن عمله قبل موت الامبراطور هادريان في سنة ١٣٨ ب.م. ، وقضى بقية عمره في الكتابة . اصبح مواطنا اثينيا في سنة ١٤٥ ب.م. ان تاريخ موته غير معروف ، ولكن يعتقد انه مات حوالي سنة ١٨٠ ب.م. ان في كتاباته عن الامبراطور الاسكندر المكدوني في حروبه مع داريوس . . آثارا قيمة في تاريخ العراق القديم ونهر دجلة . . مع وصف دقيق وممتع لبعض الاماكن العراقية العريقة الضاربة اعريقها في القدم ، وهي محفوظة في ثنايا كتابه عن الاسكندر المؤلف من سبعة اجزاء .

اجتزأت هذه الترجمة عن المقدمة التي حررها ب. راديك لكتاب اريان : «حملة الاسكندر» (The Campaigns of Alexander) التي ترجمه عن الاغريقية الى الانكليزية : اميري دي سيلين كورت ، وحققه وقدم له جـ.ر. هاملتون ، لندن ، ١٩٧٨ .

٥٣ ـ قرية «برطلة» عرف بها المؤرخ الموصلي ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

٥٤ ـ ربما قصد الرحالة د. بيركنس بهذه القرى : بعشيقه وبحزاني . . من قرى الموصل .

٥٥ ـ ربما قصد صاحب الرحلة بهذا الجبل الصغير : جبل مقلوب الواقع ليس الى الجنوب من خط سير الرحلة . . بل الى الشمال من ذلك . وربما قصد غيره .

٥٦ ـ يقصد الرحالة بيركنس بهذه الارض الانكسارية : منطقة «الدملمايجة» ، الواقعة شرق نهر دجلة قبالة مدينة الموصل . وهي المنطقة التي ذكرها صاحب رحلة المشرع البغدادي بـ «دملجة» . . ينبع منها الماء العذب . واصل الكلمة «دامله مه جه» تركية تعني بالعربية «الترشيح» ، انظر حولها : ع . العزاوي في ترجمه لرحلة «المشرع البغدادي سنة ١٨٢٢م ، عن الفارسية ، بغداد ١٨٤٨ ، ص ٨٠ .

The Letter No. 18, dated 12/05/1849; JAOS, op. cit., _ ٥٧
pp. 109 — 111.

٥٨ ـ للمزيد من المعلومات عن وصف «جسر الموصل» الشهير ، انظر :

E.S. Stevens. By Tigris and Euphrates, London, 1923 (Chap. XIII MOSUL).

The Letter No. 19, dated 13/05/1849; JAOS, op. cit., p. _ ٥٩
111.

٦٠ ـ عن تفصيلات تاريخ «جسر الموصل» : راجع مقالة المؤرخ سعيد الديوجي : «جسر الموصل في الخلف المصور» ، مجلة «سومر» ، العدد ١٠ ، سنة ١٩٥٦ .

٦١ ـ نهر دجلة : من الانهار العظمى في العالم ، ويعد القديمها تاريخا . ينتسب لفظ «دجلة» الى اللفظ السرياني «دكل» الذي يعني : شدة جريانه وسرعته على حد سواء . واما اللفظ اللاتيني 'Tigris' فقد جاء من 'Tighal' الزندية والمشتقة من كلمة (تيز = Tig) السنسكريتية ، بمعنى «حاد» . يبلغ طوله ١١٤٦ ميلا . . تفصيلات وافية عن تاريخية نهر دجلة وجيولوجيته وطوبوغرافيته . . لمجدها في :

The New Encyclopaedia Britannica, vol. 18, ed. 1974, pp. 402 — 6.

٦٢ ـ تعتبر نينوى من اشهر المدن التاريخية في حياة حضارات العالم القديم . وهي العاصمة الاخيرة والكبرى من بين عواصم الامبراطورية الاشورية . . . . يبدأ عصر نينوى منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد ، وخلال عهود حكم كل من : سنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م.) ، وآشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧ ق.م.) ، حتى انهيار الامبراطورية في سنة ٦١٢ ق.م. انظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٥٥ . ايضا : د. سيار الجميل ، «الاشوريون في التفسير التوينبي للتاريخ» ، مجلة «بين النهرين» ، العدد ١٣ ، الموصل ، ١٩٧٦ ، ص ٥ ـ ١٧ .

٦٣ ـ كويونجوق : هي مجموعة من التلول الحالية التي تقوم في موطن نينوى العاصمة الآشورية القديمة ، ولازالت هذه التلول تحتوي على ذخائر تلك العاصمة ، انظر الملاحظة رقم (٦٨) ، والملاحظة رقم (٧٢) .

٦٤ ـ يعتبر السر هـ . رسام احد ثلاثة رجال آثار كبار ، والذين تعتبرهم بريطانيا من عظمائها . . اولئك الذين كانت لهم اليد الطولى في كشف الستار عن اعظم الآثار الاشورية القديمة ، والقاء الضوء على مراحل التاريخ القديم الذي يحتل العراق قلبه ومكانته وعظمته فيه . . وتزين لوحات مصورة زيتية لهؤلاء الرجال الثلاثة القاعة الاشورية السفلى من المتحف البريطاني بلندن ، وهم : لايارد وراولينسون وهرمزد رسام ، اضافة الى لوحة اخرى في مكان آخر لكلوديوس ريج . جاء من هـ . رسام في نشرة «المتحف البريطاني» الصادرة سنة ١٩٧٧ : هرمزد رسام ، الشاب الموصلي المسيحي الذي عمل تحت ادارة راولينسون ، وعضوة مستمرة للفترة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٤م . ويعتبر مساعدا قويا للمكتشف الآثاري الاول لايارد في تنقيباته ، والذي اكتشف في النمرود معبد الاله والحكمة والكتابة ، واقنع في نينوى البلاط الشمالي للملك آشور بانيبال مع مكتبة معبد نابو ـ Nabu — المتنوعة التي اكتشفت من قبل لايارد في بلاط سنحاريب . وفي خلال الفترة ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠م رجع هـ . رسام الى حقل التنقيب بعد انقطاع ليعمل في النمرود ونينوى واشور وغيرها من الاماكن واكتشفت على يديه العديد من المأثورات الثمينة ، البرونزية التي تعود للبلاط الصغير لاشور ناصر بال الثاني وشلمنصر الثالث . ويذكر العالم البريطاني — H.W.F. Saggs — في مقدمته لكتاب لايارد بان هرمزد رسام قد تخرج من انكلترا بعد ان اصطحبه لايارد معه

اليها ، اضافة الى مشاركته لاياره في سفرته عبر جبال شمال العراق سنة ١٨٤٦م . وهرمزد رسام هو اخو كريستيان رسام نائب القنصل البريطاني في الموصل . انظر :
H.A. Layard, op. cit., the Introduction by H.W.F. Saggs, p. 7.

٦٥ ـ المستر اوستن هنري لاياره (اللي اكتسب لقب السير بعدئذ) : يعد المكتشف الاول للعديد من البلاطات الاشورية المتواجدة ـ اليوم ـ في اروقة المتحف البريطاني . اجرى عملياته في التنقيب خلال الفترة ١٨٤٥ ـ ١٨٤٧م ، والفترة ١٨٤٩ ـ ١٨٥١م . وقد اكتشف في النمرود البلاط الشمالي الغربي للملك آشور ناصر بال ، وملاحق معابد اشتار ونيبورتا والبلاط المركزي لـ تغلاث ـ بلاصر الثالث (٧٤٤ ـ ٧٢٧ ق.م.) . وفي نينوى ، ادت اكتشافاته في تلول قوينجوق الى الخلل الاساسي الآثاري الاول لنينوى والتي قادت الى ظهور البلاط الجنوبي الغربي للملك سنحاريب ، وغيرها من البنايات وما تزخر به من اللوحات التي تحكي بصورة جلية وامينة مشاهد الحروب وعمل لاياره كذلك . منقبا في آشور ، وخرسباد ، وشريف خان (سكريبصو) وتل النبي يونس وهو الحقل الرئيسي الآثاري الآخر من نينوى . رحل لاياره في ايلول ـ سبتمبر سنة ١٨٤٦م قاطعا شمال العراق . . . . واخيرا ، رجع الى بلاده متقاعدا ليدخل كعضو في البرلمان البريطاني سنة ١٨٥١ ، ليأتي بعده دور الميجر (السير لاحقا) هـ.ك رولينسون مقيم شركة الهند الشرقية في بغداد ١٨٤٣ ـ ١٨٥٥م . انظر التفاصيل :
(Ibid., the Introduction by H.W.F. Saggs, pp. 4 — 13).

لم يكتف لاياره بنقل الآثار الاشورية (= العراقية) من مهدها الى بلاده (= بريطانيا) ، بل لقد وجدت ان زوجته المستر لاياره قد نقلت الى المتحف البريطاني العديد من مخطوطات الموصل الخاصة . . لقد ظهر ذلك لي من اطلاعي على تواقيعها في تلك المخطوطات . وهناك مخطوطات اخرى من الموصل نقلها الى لندن كل من لاياره نفسه وصاحبه هرمزد رسام .

٦٦ ـ النمرود : هي العاصمة الاشورية الثانية بعد آشور . عاشت النمرود ايامها على عهود كل من الملك اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.) والملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م.) ، والملك شمش ادد الخامس (٨٢٣ ـ ٨١١ ق.م.) ، والملك ادد ـ نيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق.م.) واخيرا الملك تيغلاث ـ بلاصر الثالث (٧٤٤ ـ ٧٢٧ ق.م.) ، حتى اواخر القرن الثامن قبل الميلاد . والنمرود تقع شرقي نهر دجلة ، وجنوب شرق الموصل بنحو ١٨ ميلا ، وتعتبر ـ اليوم ـ قرية من اعمال الموصل . ويعتبر كتاب الاركولوجست «مالاوان» عن النمرود بمجلدين كبيرين من احدث واوسع واهم الكتب ، وذلك من نواح شتى : وصفها ، وآثارها وتواريخ عهودها ، ولوحاتها وكتاباتها ونقوشها . . . مستعينا بعشرات الصور الفوتوغرافية . كما ويعتبر هذا الكتاب من اهم كتب علم الآثار ، وحري بالعلماء العراقيين ـ اليوم ـ ترجمته الى العربية وتقديمه الى ابنائهم .
M.E.L. Mallowan, NIMRUD and its Remains, 2 vols., London, 1966.

المعلومات المختصرة ، تراها في :
The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 349.
The Letter No. 20, dated 16/05/1848; JAOS, op. cit., pp. 112 — 115. ـ ٦٧

٦٨ ـ تسمى هذه المنطقة التي تقع اليوم في الجانب الايسر من مدينة الموصل بـ«تل قوينجوق» وهو التل الرئيسي من مجموعة كبيرة من التلول الواسعة التي تشكل حلقة لها استداراتها المتراصة والمتوازية اطلال العاصمة العظمى الكلاسيكية (نينوى) ، وهي ذات شكل مستطيل غير منتظم الابعاد ، وآثار سورها الداخلي واضحة ، وطوله (١٢) كم ويجري شرقنا هذه العاصمة التاريخية (= مجموعة التلول) نهر الخوصر اما اليوم ، فتقوم على الطرف الشمالي من اطلال العاصمة نينوى ابنية المركز الجامعي لكليات والسنة جامعة الموصل الحديثة . راجع تفصيلات مادة "Nineveh" في :
The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 351.
اضافة الى معلومات وافية عن «حافظة نينوى» .

٦٩ ـ القنصل الفرنسي في الموصل هو المسيو ب.ي. بوتا ، انظر ترجمته ـ عندي ـ لاحقا ، رقم (٧٣) .

٧٠ ـ مُنح راولينسون بالاشتراك مع لاياره درجة الشرف كمؤسسين لعلوم «الاشوريات» ومحتويات عصورها التاريخية والحضارية لـ«الاشورلوجيات» المتحف البريطاني . ويعتبر راولينسون عالما كلاسيكيا من الطراز الاول ، ـ حسب تصنيف القواتر البريطانية ـ ولكنه لم يكن يقدر لأي فن آخر كالذي تحتويه المعلومات الاغريقية . وكان اكبر من لاياره سنا بسبع سنوات ، تلقى علومه العسكرية في شركة الهند الشرقية في عام ١٨٢٧ وتعلم بصورة جلية اللغات الشرقية ، وتنقل في اماكن عديدة من الشرق الادنى . اخباره التفصيلية في مقدمة د. ساكس لكتاب لاياره ، انظر :
H.A. Layard, op. cit., Introduction by H.W.F. Saggs, pp. 19 — 20.

٧١ ـ جامع النبي يونس : من اكبر واوسع جوامع الموصل على مر تاريخها العربي والاسلامي . يقوم عاليا على التل الذي يدعى بـ«تل النبية» بني بعد التحرير العربي للموصل على انقاض «كنيسة» قديمة . . ثم جددت بناؤه في القرن الرابع الهجري جيلة بنت ناصر الدولة الحمداني واوقفت له . وتطور في القرن السادس الهجري تطورا مشهودا ليشتمل على بيوت ومقاصير ومطاهر وسقايات ، كما يذكر ذلك ابن جبير في زيارته له سنة ٥٨٠هـ ـ وفي سنة ٧٦٧هـ ، جدده ووسعه جلال الدين ابراهيم الختني . وتعرض الجامع للنهب والسلب وتلفت محتوياته من قبل الايرانيين اثناء غزو ناردشاه وجيوشه للعراق ، وذلك خلال حصار ناردشاه للموصل سنة ١٧٤٣م الذي خاب بالفشل ، فجدد آثاث الجامع وسجاده والى الموصل الجليلي حسون باشا بعد رحيل ناردشاه الى بلاده منخذلا مدحورا ، انظر ما كتبه عنه المؤرخ سعيد الديوه جي في كتابه : «جوامع الموصل» ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص٧٣ ـ ١٠٧ .

٧٢ ـ تسمى هذه الرابية ، بالتل الثاني الكبير بعد تل قوينجوق . وتدعى بـ«تل النبية» (انظر الملاحظة رقم ٧١) ورد ذكرها عند : المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١ ، مصر ، ١٣٤٦هـ ، ص ١٣٢ .

٧٢أ ـ المسيو بارل اميل بوتا (P.E. Boota) : القنصل الفرنسي في الموصل الذي اتانا بعد ان كان يشغل نفس المنصب في الاسكندرية واليمن . شارك بوتا ضمن اعمال لاياره ، وكان عمره آنذاك ٤٠ سنة ، وقد حصل على نتائج عديدة ضمن نطاق تنقيباته في خرسباد ونينوى . تعلم بوتا الكثير من اعمال التنقيب وفصلها الحفريات والعمليات والفحوصات التي تجري لخطط «الانتيكات» الاشورية ، وتقدير اعمارها من لاياره الملازمة اياه ، اذ بموجب ما ذكره لاياره ، فان بوتا لم يكن هاويا ولا مؤرخ كلاسيكي (= مشتغل على العصور القديمة) ، لذا فقد استفاد من

لايارد الكثير ، ولم يوفق في بداية عمله ، ولكنه نجح بصورة كبيرة بعد ان تقاعد لايارد وقادته اعماله في تل قوينجوق بنينوى الى اكتشاف آثار خرسباد . هذا الى جانب عمله كقنصل لفرنسا في الموصل ، وقد جرت تنقيباته تحت رعاية الحكومة الفرنسية . . راجع عنه في كتاب «لايارد» المذكور آنفا . ولمزيد من التفصيلات عن بوتا ، انظر :

Seton Lloyd, The Archaeology of Mesopotamia, London, 1978, p. 139.

وهذا الكتاب هو من احدث الاعمال المختصة بحقل «الاركيولوجي» المتعلق بشؤون آثار العراق . وهو الكتاب المحدث الثاني الذي اود ان الفت اليه نظر زملائي المؤرخين والآثاريين العراقيين ، بغرض العمل على ترجمته الى اللغة العربية .

٧٤ ـ خرسباد : واسمها القديم (= دور شروكين) اي « مدينة سرجون » ، هي العاصمة الآشورية الثالثة بعد آشور والنمرود ، قامت حيالها الآشورية على عهد الملك سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م.) الذي اتخذ له فيها قصرا ومعبدا . واصل بوتا حفرياته فيها حتى سنة ١٨٤٤ ، ثم جرت تنقيبات اخرى فيها للفترة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٤م ، واكتشفت فيها العديد من الآثار المهمة ، ولكن معظمها فقد في شط العرب عندما غرق القارب الذي يحملها قرب البصرة في مايس ١٨٥٥ ، وذلك اثناء استلابها من مواطنها الاصلية وارسالها الى اوربا . للمزيد من التفاصيل انظر مقدمة « ساكس » لكتاب لايارد السابق ذكره . وراجع ايضا :

The New Encyclopeadia Britannica, vol. v, ed. 1974, p. 783.

٧٥ ـ تقع اطلال كالح قرب منطقة الشرقاط جنوبي الموصل ، وتسمى «داشور» ، وهي العاصمة الاولى للامبراطورية الآشورية في عصرها الاول حتى سنة ١٠٠٠ ق.م. ، ولحاني ضفاف نهر دجلة . . . وقد وصفها المؤرخ الاغريقي اكزاناثون (= اريان) ، وذكر بان آثارها تعود لعصور قبل الاغريق بفترة ٢٢ قرنا . وهي المدينة الاصلية لبدء الامبراطورية الآشورية وتاريخها وحضارتها . . وهي شبيهة بالنمرود ، وتتواجد قربها منها هاتية كثيفة قطعها لايارد في سفرياته الى كالح ـ الشرقاط . راجع كتابه المذكور اعلاه .

٧٦ ـ يقصد بها : «الرحبة من بلاد الشام ، والواقعة على شاطىء نهر الفرات اسفل قرقيسيا» ، انظر عنها : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٣٤ .

٧٧ ـ للمزيد من التفاصيل عن نينوى والموصل في بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، انظر ما كتبه كلوديوس ريج ، المقيم البريطاني في بغداد ١٨٠٨ ـ ١٨٢١م :

C.J. Rich, Narrative of a Residence in Koordistan, 2 vols., London, 1836.

وهناك كتاب هام وشيق ايضا ، كتبه ك.م. الكساندر عن كلوديوس ريج : السائح والفنان واللغوي ورجل الاتيكات ، المقيم البريطاني في بغداد لسنوات طويلة ١٨٠٨ ـ ١٨٢١م ، وقد خصص مؤلف هذا الكتاب احد فصوله عن نينوى والموصل للفترة ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ، انظر :

Constance M. ALexander, Baghdad in Bygone Days, (From the Journals and Correspondence of Claudius Rich, Traveller, Artist, Linguist, Antiquary, and British Resident at Baghdad, 1806 — 1821), London, 1928, (Chap. No. XVIII: Nineveh and Mosul 1820 — 1821.

The Letter No. 20, dated 16/05/1849; JAOS, op. cit., pp. ـ ٧٨ 112 — 115.

٧٩ ـ انظر : الملاحظة رقم ٦٦ اعلاه .

٨٠ ـ قرية السلامية : من اعمال الموصل ، تقع على نهر دجلة للجنوب الشرقي منها . وقد كانت فيما مضى تعد من اكبر قرى الموصل ، وفيها كروم ونخيل وبساتين ، وعدة حمامات وقيسارية وجامع . . . وعلى جانب منها تقع اطلال «النمرود» . وقد اصاب السلامية خراب شامل ، ثم بدأت تعمر قليلا مرة اخرى . وصفها بدقة : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ . وكتب عنها المؤرخ ياسين الخطيب العمري في : المثنى . . ، المرجع السابق ، ص١٥١ .

٨١ ـ ذكر على هامش الرسالة ٢٠ لصاحب الرحلة :

'Ezekiel, xxiii, 14, 15 — 16; JAOS, op. cit., p. 119.

٨٢ ـ الحضر (Hatra) عاصمة مملكة « عربايا » اي بلاد العرب . يعود اصل التسمية استدلالا من الكتابات التي وجدت فيها بحجر « بهستون » انها : كانت ضمن اسماء الاقاليم التي كانت تسيطر عليها الامبراطورية الفرثية في عهد الملك دارا الاول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م.) ، ثم صار حكامها في القرنين الثاني والثالث الميلاديين يلقبون في الكتابات «الحضرية» بـ « ملوك العرب » . راجع تفاصيل تاريخها وآثارها عند : فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى في كتابهما : الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ١٧ .

The Letter No. 21, dated 18/05,1849; JAOS, op. cit., pp. ـ ٨٣ 115 — 119.

٨٤ ـ كتاب لايارد : هو الكتاب الذي تقدم ذكره في ملاحظاتي واستخداماتي له ، انظر اعلاه : الملاحظة رقم (٣٤) .

(أ) See, S.H. Longrigg, Four Centuries of Modren Iraq, Oxford, 1925, p. 328 — 334

بقول السيد عبود الشالجي المحامي في مقالته التي ترجمها عن الانكليزية بعنوان : «احوال بغداد في القرن التاسع عشر» ، ما يلي : « السيد وليم بيري فوك اول سائح اميركي زار العراق ، فقد غادر اميركا في اول سنة ١٨٧٤م قاصدا مصر» (انظر : مجلة سومر ، جـ ١ ـ ٢ ، المجلد ١٦ ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص١٣) ! في حين يثبت البحث ان جوستن بيركنس هو اقدم من بيري فوك بربع قرن في زيارة اول اميركي للعراق ! وربما كان هناك من هو اقدم من بيركنس !

(ب) انظر : الملاحظة رقم ١٧ (ملاحظات وتعليقات) .

(ج) انظر : الملاحظة رقم ١ ، الملاحظة رقم ٢ (ملاحظات وتعليقات) .

(د) See, Who was who in America : Historical Volume 1607 — 1896, Chicago, ed. 1967, p. 467.

(هـ) يقصد بها «الدولة العثمانية» التي كانت تسمى بـ«تركيا» عند اغلب الرحّالة من الغربيين .

(و) للاستزادة في المعلومات عن هذا الموضوع ، اشير الى مقالة فريدريك بارث والموسومة بـ : «دراسة في الحياة الاجتماعية في كردستان» ، مجلة سومر ، جـ١ ، المجلد ٨ ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ٩٦ ـ ٩٨ .